التعبير بالأسلوب الكنائي لدى الشعراء المعمَّرين (الكناية عن التعمير)

الدكتور

بدر بن لافي بن رشيد الجابري

دكتوراه في البلاغة

العدد الثاني والعشرون

للعام ١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الجزء الثاني

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٨م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله القائل ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ (١)، والصلاة والسلام على من قال: « إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»(٢)، **وبعد:**

فإن التَّعمير له أخبارٌ وشأنٌ مع العرب ؛وقد تداولَ الأدباء والمؤلفين تلك الأخبار بينهم، وشابها نوعٌ من المبالغة ؛خاصةً فيما يتعلّق بالعمر، وسنَّةُ العرب في إطلاقهم اسم (المُعَمَّر) على الرجل ؛أن يكون قد بلغ من العمر مئةً وعشرين سنةً كما ذكر الأبشيهي(٣)، وهو المعيار الذي اتخذه أبو حاتمٍ السجستاني في كتابه (المُعَمَّرين من العرب وطُرَفٍ من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم) ؛فلم يذكر من المعمّرين من قَلَّ عمرُه عن ذلك، وإلا في بعض كتب الأدب تسمية من بلغ الثمانين بالمعمّر، وكان للعرب بعض القوانين والأعراف في تعاملهم مع المعمّرين ؛منها: أنه «كان الرجلُ منهم إذا كَبِرَ وضَعُفَ ؛أتاه ابنُه أو وَلِيُّه ؛فعقله بعقالٍ، ثم قال: قُمْ. فإنْ استتَّم قائمًا، وإلاّ حَمَلَهُ إلى مَحْبِسٍ لهم ؛يُجرَى على أحدهم فيه رزقه ؛حتى يموت»(٤)، كما أنَّ العرب كانت تحجب المعمّرين والكبير منهم عن الناس ؛خوفًا من أن يجري على لسانه ما يسوءُ، فيكون مسبَّةً لهم(٥).

وللمعمّرين لطائفٌ ونوادرٌ ؛ منها:

---

(١) سورة النحل ؛من الآية: ٧٠.
(٢) سنن أبي داود (٤/٢٦١-٢٦٢).
(٣) المستطرف (٢/٧٥).
(٤) التعازي والمراثي ص ٧٩.
(٥) ينظر المعمّرين ص ٧٥-٧٦ ؛مع حواشي المصحِّح.

ما ذكره ابن قتيبة بقوله: «رأى ضرار بن عمرو الضَّبِّي له ثلاثةَ عشر ذكراً قد بلغوا ؛فقال: مَنْ سرَّهُ بَنُوهُ ساءَتْهُ نفسُهُ»(١).

ويُروى أن سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي دخلَ مسجدًا ؛فرأى معمّرًا يدبُّ زاحفًا، فقال له: يا شيخ أيسرُّكَ أن تموت؟، قال الشيخ: لا، فقال له: ولِمَ ؛وقد بلغت من السِّنِّ ما أرى؟، قال الشيخ: ذهبَ الشبابُ وشَرُّهُ، وبقي الكِبَرُ وخيرُهُ.(٢)

ويقال أن لبيد بن ربيعة العامري عُمِّر وطالت حياته ؛حتى حُرِّمَ عليه نكاح خمس مئة امرأةٍ من نساء بني عامر، لقرابتهنَّ منه ؛فهو محرمٌ لهن(٣).

ومن العرب مَنْ عُمِّر ولم يمت ؛حتى رأى من صلبه مئةَ مولودٍ، وهم أربعةٌ: أنس بن مالك رضي الله عنه، وخليفة ابن أبي السعدي، وعبد الله بن عمر الليثي، وجعفر بن سليمان الهاشمي(٤).

وقد أورد المبرد طائفةً من نوادر المعمّرين ؛كقوله: «مَرَّ المستوغرُ بن ربيعة يقودُ ابنَ ابنِه بعكاظ، فقيل: مَنْ ذا؟ قال: ابن ابنى، قالوا: وما رأينا كاليوم في الكذب مثلَك قط، لو كنتَ المستوغرَ ما زاد، قال: فأنا المستوغرُ. وفى حديث آخر: فلما رأوه يقودُه ظَنُّوا أنه أبوه ؛فقالوا: ارْفقْ به فطالما رفقَ بكَ، فقال: إنه ابن ابنى »(٥)، وكقوله: « قال يونس النحوي: ما بكتِ العربُ على شيءٍ بكاءَها

(١) عيون الأخبار (٢/٦٩٥).
(٢) التذكرة الحمدونية (٦/٤٤) ؛بتصرّف.
(٣) ينظر: جمهرة أشعار العرب (١/١١٢).
(٤) ينظر: مفيد العلوم للقزويني ص ٣٥٧.
(٥) الفاضل ص ٦٩.

على الشَّباب، وما بلغتْ به كُنْهَ ما يستحقّ »[١]، وكقوله: «ويُروى أنه مكتوبٌ في الحكمة: مَنْ بَلَغَ السَّبعينَ ؛اشتكى من غير عِلَّة»[٢].

ما سبق لمحةٌ عن التعمير والمعمَّرين، أمَّا ما يخصُّ هذا البحث ؛فأقول إن مناهج التأليف لدى العرب سارت في اتجاهات عدّة:

منها ما يكون ذا طابعٍ شمولي ؛بحيث إنه يستغرق جميع مسائل العلم الذي أُلِّف فيه، كالشيخ عبد القاهر الجرجاني أدار مسائل البلاغة في كتابيه على شواهد شتَّى ذات مواضيع ومضامين مختلفة ؛منها ما يكون في المدح، ومنها ما يكون في الذَّمِّ، أو في الفخر، أو النسيب، أو الشكوى ؛وتجمعها كلَّها المسألةُ التي هو بصددها، إن كانت تشبيه أو استعارة أو قصر أو فصل ووصل أو غيره.

ومنها ما يكون ذا طابعٍ خاصٍّ ؛كأن يكون في معنى واحدٍ من المعاني، يُدير عليه المصنِّف العديد من الشواهد، كما فعل أسامة بن منقذ بكتابه (العصا) ؛إذ حشدَ فيه كلَّ ما وصلَ إليه مما قيل في العصا، وبحثنا هذا قريبٌ من ذلك ؛مع اختلافٍ يكمن في أنني أدرتُ الأشعارَ التي قيلت في التعمير وطول الحياة على فن الكناية، على اعتباره مبحثًا من مباحث علم البيان في علم البلاغة ؛فذكرتُ فيه كلَّ ما طالعتَهُ من أبياتٍ صدرت من شعراء معمّرين، وتضمَّنت كنايات عن التعمير فقط، وإلا فإن المعمّرين كَنَّوا عن أشياء أُخر غير تعميرهم، لكنَّني أهملتُ ذلك ؛لخروجه عن حدود هذا البحث.

وألفتُ هنا إلى عددٍ من الأمور ؛ راعيتُه في كتابة هذا البحث، هي:

أولًا : قسمتُ البحث إلى مقدّمةٍ وثلاثةِ فصولٍ وخاتمةٍ ؛جاءت على النحو التالي :

---

(١) الفاضل ص ٧٣.

(٢) الفاضل ص ٧٠.

١- **المقدّمة:** وبيَّنتُ فيها شيئًا عن ظاهرة التعمير من خلال سُنَنِ العرب فيمَنْ عُمِّر منهم، مع ذكر بعض النُّتفِ من نوادر ولطائف المعمَّرين، مع اطلاع القارئ فيها على منهج البحث.

٢- **الفصل الأول:** كناياتهم عن التعمير بما فقدوه من سمات جسدية.

٣- **الفصل الثاني:** كناياتهم عن التعمير بما فقدوه من سمات معنوية.

٤- **الفصل الثالث:** كناياتهم عن المآل والمصير بعد تعميرهم.

٥- **الخاتمة:** ووصَّفتُ فيها الفصول الثلاثة التي حواها البحث ؛بتعدادِ أمثلةٍ لبعض الصفات والسمات المذكورة فيهن والمُكَنَّى بها عن التعمير، مع ذكر بعض النتائج التي ظهرت لي من خلال البحث.

ثانيًا: اعتمدتُّ على معيار أبي حاتمٍ السجستاني في تحديد الحدّ الأدنى من عمر الشاعر – مئةٍ وعشرين سنةً – ؛كي يُعدَّ من المعمَّرين.

ثالثًا: اتَّكأتُ على كتاب (المعمّرين) لأبي حاتمٍ السجستاني في جمع المادة الشعرية للبحث، وفي حدودٍ ضيقةٍ أخذتها من مصدرٍ غيره مع ورود أخبار تعمير الشاعر في كتاب أبي حاتمٍ السجستاني والإشارة في الحاشية إلى ذلك، وفي حدودٍ أضيق كنتُ كالمستدرك على أبي حاتمٍ من ذكر معمّرين خلا منهم كتابه وكانوا على شرطه ومعياره في تحديد سنِّ المعمّرين ؛ولم يكن ذلك إلا فيما يخصُّ الشاعر المعمّر تميم بن أُبي بن مقبل، كما أنني استضأت كثيرًا في ذلك بكتاب الدكتورة شمس الإسلام أحمد حالو (ديوان الشعراء المعمّرين: أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي) ؛ ووثَّقتُ منه بعض الشواهد الشعرية.

رابعًا: لم أُترجم للشعراء ؛للاكتفاء بورود خبر تعميرهم وشيءٍ من أخبارهم في كتاب أبي حاتمٍ السجستاني ؛ومعلومٌ شرط أبي حاتمٍ في سنِّ مَنْ يُعَدُّ

معمَّرًا، ما يضمن عدم دخولِ غيرهم معهم، ويضمن عدم تضخُّم حجم هذا البحث بكثرة الترجمات، مستثنيًا من ذلك مَنْ عُمِّرَ ولم يذكره أبو حاتمٍ وله شعرٌ يدخل في نطاق البحث ؛من خلال ذكر ترجمةٍ يسيرةٍ له وما يدلُّ على أنه من المعمّرين مع العزو للمصدر ؛وكان ذلك في حقِّ المعمّرٌ تميم بن مقبل فقط كما ذكرت.

خامسًا: وجدتُ بعضَ أخبارِ المعمّرين محفوفةً بالأساطير ؛ولكنّني غلَّبتُ فيها الجانب الأدبي على الجانب الأسطوري، من خلال جلب الشواهد الشعرية منها ؛ومعالجته وفق منهج هذا البحث.

سادسًا: اختصرتُ اسم كتاب أبي حاتمٍ السجستاني من (كتاب المعمّرين من العرب وطُرَفٍ من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم) في حواشي البحث إلى (المعمّرين).

سابعًا: فسرتُ ما غمض من ألفاظٍ من معجم لسان العرب ؛وأشرتُ إليه بـ(اللسان) مع ذكر مادة الكلمة والعزو إلى الجزء والصفحة.

ثامنًا: كثيرٌ من كنايات المعمّرين ؛كانت من الكنايات البعيدة في مقياس البلاغيين، على سبيل المثال (اتخاذ العصا) مستلزمٌ للضعف، والضعف مستلزمٌ لقلّة الأكل، وقلّة الأكل مستلزمةٌ لفقدان الشهية، وفقدان الشهية مستلزمٌ – إن لم يكن سببه مرضًا – بلوغ الإنسان سنوات طويلة من عمره، وهو مستلزمٌ للتعمير ؛فلذلك أجريت (اتخاذ العصا) على الكناية عن التعمير دون تعدادٍ للوسائط السابقة لوضوحها، بتعضيدٍ من سياق الكلام وأخبار الشاعر التي تفيد بأنه من المعمّرين.

الفصل الأول

كناياتهم عن التعمير بما فقدوه من سمات جسدية

أول ما يكون من أمر التعمير ظهور تغيرات على الجسم ؛تحدُّ من طاقاته التي ركزها الله تعالى فيه، وكان أكثر ما يؤرِّق المعمّرين أمرُ تلك التغيرات ؛بسبب مخاوفهم من تأثيرها على قدراتهم الجسدية والاجتماعية في ظل النسيج القبلي الذي كانوا يعيشون فيه، والذي لا مكان فيه للضعفاء ؛لذا قال زهير بن أبي سُلمى(١):

وَمَنْ لا يَذُدْ عن حَوْضِهِ بسلاحِهِ ∴ يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظلمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

فماذا يصنع في هذه البيئة معمّرٌ أثقل جسدَه تعاقبُ الأيام والدهور ؛وقد حناهُ وأعوج صلبه ؛ إلى أن أصبح كما يقول أبو الطَّمَحان القيني(٢):

حَنَتْنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى ∴ كَأَنِّي خَاتِلٌ أَدْنُو لِصَيْدِ

إذ كنَّى عن تعميره ؛بانحناء ظهره، وصارت مشيتُه كمشية من يختل صيد، فالخاتل يحني ظهره، ويقارب خطاه، ويحذر في مشيته وهو يقترب من طريدته، وهو ما يحدث للمعمّر، وما يزيد من ألم هذا الانحناء ؛ما يجرُّه من تشويهٍ للخِلقةِ، واستهزاءِ الآخرين خاصة النساء به، وهو ما صوَّرهُ عَبّاد بن شدّاد اليربوعي ؛بقوله(٣):

وتَهْزَأُ العرس(٤) مني أن رَأَتْ جَسَدِي ∴ أَحْدَبَ لم يَبْقَ منه غيرُ أَجلادِ

---

(١) ديوانه – بشرح ثعلب – ص ٣٠.

(٢) المعمّرين ص ٥٧.

(٣) المعمّرين ص ٥٨.

(٤) عِرْسُ الرجل: امرأته. اللسان – مادة: عرس – (١٣٤/٦).

فزوجته تهزأ به وبما حلَّ بجسده من انحناء وضعفٍ عامّ ؛ بفعل تعميره والذي كنَّى عنه بقوله (أحدب) وهو اعوجاج في الصلب ؛غالباً ما يصيب المعمّرين، كما أنه كنّى عن تعميره بقوله (لم يَبْقَ منه غيرُ أَجلادِ) فلم يبق منه غير العظم والجلد ؛ بسبب الهزال الذي ألمَّ به من طول عيشه ؛ وهو معنى أكثر المعمّرون من الكناية به عما عاشوه من سنين – كما سيرد إن شاء الله تعالى –.

وممن وقع تحت طائل هذا الاستهزاء ذو الإصبع العَدْواني ؛إذ يقول[١]:

هَزِئتْ زُنَيْبَةُ أن رأتْ ثَرَمِي ∴ وأن انحنى لتَقَادمٍ ظهري

فهو يكني عن تعميره بسقوط أسنانه – وسيرد معنا هذا المعنى من الكنايات –، وبانحناء ظهره ؛والذي جعل منه محلّ استهزاءٍ وسخريةٍ، والاستهزاءُ أكثر ما يكون إيلامه إذا صدر من الزوجة، وهو ما أثقل رواحل المعمّرين، وجعلهم ينفثون نفثة مصدورٍ، ويئنون أنين مكلوم، هذا وقد يغيِّر الحَدَبُ منظر الإنسان من جميلٍ متناسقٍ إلى ما وصفه دريد بن الصِّمَّة في قوله[٢]:

فإنْ يَكُ رأسي كالثَّغَامَةِ(٣) نَسْلُه ∴ يُطِيفُ بي الولدانُ أَحْدَبَ كالقِرْدِ

فهو يخبر عما طرأ على مظهر جسده الخارجي ؛بفعل تعميره وطول حياته، فيبدأ برأسه الذي غزاه الشيبُ وأحاله كنبات الثَّغَام حينما ييبس ويتحوَّل من الخضرة إلى البياض، إلى أن يقول (... أحدب كالقرد) ؛إذ كنَّى عن تعميره بانحناء ظهره، ثم زاد في تشنيع صورته من خلال تشبيه نفسه بالقرد، مضرب

(١) ديوانه – الطبعة العراقية – ص ٣٩، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٩٠.
(٢) المعمّرين ص ٢١.
(٣) الثَّغَامة واحدة الثَّغَام: وهو نباتٌ "يكون في الجَبل ينبُت أَخضر ثم يبيضّ إِذا يَبِس" . اللسان – مادة: ثغم – (٧٧/١٢).

الأمثال في الشناعة وسوء المنظر، ونلفتُ الانتباه هنا إلى قوله (الولدان) مع ما توحيه هذه اللفظة من حداثة السِّنِّ ؛ما يعكس حجم الفارق الزمني الكبير بينه وبين مَنْ يعيش معهم، والأجيال التي عاصرها، وكثرة الأيام التي مرّت على معمّرٍ مثله، والتي كابدَ أثرها ؛الذي وصفه عوف بن سبيع القضاعي بقوله[١]:

ألا هل لمَنْ أَجرَى ثمانينَ حِجَّةً ∴ إلى مائةٍ ؛عَيشٌ، وقد بلغَ المدا

وما زالتِ الأيامُ ترمي صفاتَهُ ∴ وتغتالُهُ حتَّى تَضَعْضَعَ وانحنا

وصارَكفَرْخِ النِّسْرِ يَهتزُّ جِيدُهُ ∴ يرى دونَ شخصِ المرءِ شخصًا إذ رأى

فها هي الأيام ترمي عوفًا بالجديدين ؛وترديه شيخًا منحني الظهر، لا يقوى على إقامة صلبه، وغدا معمّرًا ذا رعشةٍ واهتزازٍ، كاهتزاز عنق فرخ النسر، وقد ناسب هنا عوفٌ بين حاله وهو في أرذل العمر وحال فرخ النسر، من خلال عقده التشبيه بينهما، ففرخ النسر ضعيفٌ كَلٌّ على أبويه، وكذا عوفٌ ؛فإنه كَلٌّ على غيره، لا يستغني عن مساعدتهم. والشاعر بعد أن كنَّى عن تعميره بانحناء الظهر ؛كنَّى عنه بضعف البصر وهو قوله (يرى دونَ شخصِ المرءِ شخصًا إذ رأى) فإنه مع تقدُّم عمره فقد شيئًا من بصره ؛وأصبح يرى الشيءَ شيئين، ولعمرك فإن ما حلَّ ببصر عوفٍ ؛حلَّ بغيره من المعمّرين، ما جعلهم يكنُّون به عن تعميرهم ؛فها هو خِنَّابة بن كعب العبشمي يخبر عن ذلك بقوله[٢]:

تَلَعبتْ بي الأيامُ فتركتني ∴ أَجَبَّ السَّنامِ حائرًا حين أنظرُ

أرى الشَّخصَ كالشَّخصينِ والشيخُ مولعٌ ∴ بقول أرى والله ما ليس يبصرُ

(١) المعمرون ص ٥٦.

(٢) المعمّرين ص ٨٥.

ومثله الحارث بن التّوْأم اليشكري في قوله(١):

وإذا تراءى القومُ شخصًا خالَهُ ∴ شخصينِ ثَمَّت لم يكن هو أبصرا

فإنهما كنَّيا عن تعميرهما بضعف البصر ؛فأصبحا يريان الشخصَ شخصين، والواحدَ اثنين، وألفت النظر إلى الإيحاء اللطيف في بيت الحارث ؛وذلك قوله (وإذا تراءى القومُ شخصًا) فأكثر ما يؤلم ويزيد من المعاناة، عندما يخذلك بصرُك وقت ما تكون في أشد الحاجة إليه، فالحارث وصحبه عَنَّ لهم على بُعدٍ هيئةُ إنسانٍ، والكل كان يتطلَّعُ لكشف كنهِ ذلك الإنسان؛ إلا الحارث فإنه يرى إنسانين. ومِثْلُ خِنَّابة والحارث ذو الإصبَع العَدْوَاني ؛إذ يقول(٢):

أصبحتُ شيخًا أرى الشَّخصينِ أربعةً ∴ والشَّخصَ شخصينِ لمّا مسَّني الكِبَرُ

ولعلّ ما يسوء في ضعف البصر حينما يُعمّر المرء ؛هو ما يصاحبه من فَقْدٍ لصفاتٍ عدَّة بسبب ذلك الضعف:

كفَقْدِ مهارة الرمي وإصابة الأهداف ؛وهو ما عبَّر عنه النّمر بن تولب بقوله(٣):

وقد كُنْتُ لا تُشوِي(٤) سِهَامِي رميَّةً ∴ فقد جَعَلَتْ تشوي سِهَامِي وتَنْصلُ

فكان من شدة وقوّة بصره لا يخطئ هدفَه إذا ما رمى، ولكن بعد أن بلغ من العمر ما بلغ ؛وضعف بصره أصبح لا يصيب هدفه، وقبل هذه الكناية وبعدها تلك المفردات (تَشْوي ... تنصلُ) التي أعملها النمرُ في بيته هذا ؛فعملت ما

(١) المعمّرين ص ٧٩.
(٢) المعمّرين ص ٩٠.
(٣) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ١٠١، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.
(٤) جاء في اللسان – مادة: شوا – (٤٤٥/١٤): وفي حديث عبد المطلب كان يَرى أَن السهمَ إِذا أَخطأَه ؛فقد أَشْوى، يقال: رَمى فأَشْوى ؛إِذا لم يُصِبِ المقتلَ ... والشَّوى: إِخْطاءُ المقْتل.

عملت فيه! واكسبته عمقًا في المعنى ؛فالنمرُ وفق مدلول هذه الألفاظ كان يرمي الفريسةَ في مقتلٍ ؛فيرديها قتيلةً، أما وقد عُمّر وضعف بصره ؛فإنه حينما يرميها لا يصيبها في مقتلٍ، وسهمه ينصل ويسقط منها وتولي هاربةً.

أو كفَقْدِ المعمّر بسبب ضعف بصره ؛مهارة دلالة الناس وهدايتهم إلى ما يريدون من أماكن ؛كما عبَّر عنه أميَّة ابن الأسكر الكناني في قوله(١):

ولستُ أهدي بلادًا كنتُ أسكنها قد كُنْتُ أهدي بها نفسي وصُحْباني

وتميم بن مقبل في قوله(٢):

يَاحُرَّ أَمْسَيْتُ شَيْخاً قَدْ وَهَى بَصَرِي ∴ وَالْتَاثَ ما دُونَ يَوْمِ الوَعْدِ مِنْ عُمُرِي
ياحُرَّ مَنْ يَعْتَذِرْ من أَنْ يُلِمَّ بِهِ ∴ رَيْبُ الزَّمَانِ فَإِني غَيْرُ مُعْتَذِرِ
يَاحُرَّ أَمْسى سَوادُ الرَّأْسِ خَالَطَهُ ∴ شَيْبَ القَذَالِ اخْتِلاَطَ الصَّفْوِ بِالْكَدَرِ
يَاحُرَّ أَمْسَتْ تَلِيَّاتُ الصِّبَا ذَهَبتْ ∴ فَلَسْتُ مِنْهَا عَلَى عَيْنٍ ولاَ أَثَرِ
قدْ كنتُ أَهدي ولا أُهدى ، فعَلَّمَني ∴ حُسْنَ المَقَادَةِ أَنِّي فَاتَنِي بَصَرِي

فإن التعمير حلَّ بالشاعرين وخيَّمَ بظلاله عليهما ؛وأفقدهما خِلالًا كثيرةً، منها حدّة البصر ؛حتى أنهما كنَّيَا به عن تعميرهما وبلوغهما من العمر أرذله، أما أميَّة فإنه لم يستطع إفادة نفسه ؛فضلًا عن أن يفيد غيره، ما ضاعف من معانته، وصعَّب عليه حياته، أما تميم فإن المعاناة لديه نحتْ منحى آخر، وأخذت

(١) ذيل الأمالي لأبي علي القالي – المطبوع مع الأمالي – ص ٦٥٧،وخبر تعمير أمية بن الأسكر في (المعمّرين) ص ٦٧.

(٢) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ٦٩ ، ٧٠ ؛وهو تميم بن أُبي بن مقبل من بني العجلان، شاعرٌ مخضرمٌ أدرك الإسلام فأسلم، وعاش مئة وعشرين سنة ؛توفي بعد سنة ٣٧هـ. تنظر ترجمته في: الإصابة (٣٧٧/١)، الخزانة للبغدادي (٢٣١/١)، طبقات فحول الشعراء ص ٦١، الأعلام (٨٧/٢).

بُعدًا أشدَّ إيلامًا ؛وهو ما يتعلّق بالاستقلالية والاعتماد على النفس، إذ إنه أضحى – بعد أن كان يقود الناس ويرشدهم – يُقاد، وأصبح يُهدى الطريق بعد أن كان يهدي.

أو كفَقْدِ الرؤية الصحيحة للأشياء ؛وهو أسوء ما يكون من ضعف البصر بسبب الكِبَر والتعمير ؛كما يقول النعمان البلوي[١]:

تَهَدَّلَتِ العَيْنَانِ بَعدَ طَلاوَةٍ ∴ وبَعدَ رضًا فأحسبُ الشَّخصَ راكبا

وأُبْعِدُ ما أَنْكَرتُ كي أَسْتَبِينَهُ ∴ فأَعْرِفه وأُنْكِر المتقاربا

فإنه كنَّى عن تعميره بتهدّل عينيه، ورؤيته الشخص الماشي كأنه راكبٌ، ورؤيته الأشياء البعيدة مع عدم رؤية الأشياء القريبة ؛وهو ما يُعرف بـ(بُعد النظر)، وكلّ هذه الأمور والعلل مما يعرض للمعمّر في آخر حياته، هذا وقد أكثر الشعراء المعمّرون من الكناية بضعف البصر عن التعمير ؛حتى عُدَّ علامة من علاماته، وآية من آياته، كما يقول أحد الشعراء المعمّرين [٢]:

سَلْنِي أُنْبِئُكَ بآياتِ الكِبَرِ ∴ نَوْمُ العِشَاءِ وسُعَالٌ بالسَّحَرْ

وقِلَّةُ النَّوْمِ إذا اللَّيلُ اعتَكَر ∴ وقِلَّةُ الطَّعْمِ إذا الزَّادُ حَضَرْ

وسُرْعَةُ الطَّرْفِ(٣) وتَحْمِيجُ(٤) النَّظَر ∴ والنَّاسُ يَبْلُونَ كما يَبْلى الشَّجَرْ

---

(١) المعمّرين ص ٨٢.

(٢) في العقد الفريد (٣٦٨/٢) منسوبةٌ للمستوغر بن ربيعة أحد الشعراء المعمّرين ؛وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٩، وفي البيان والتبيين (٣٩٩/١) وتاريخ الإسلام للذهبي (٢٧٠/٧) منسوبةٌ لمعمّرٍ آخر هو الهيثم بن الاسود بن العريان ؛مع اختلاف الروايات في عدد الأبيات وبعض ألفاظها وترتيبها.

(٣) الطرْفُ: إطْباقُ الجَفْنِ على الجفْن. اللسان – مادة: طرف – (٢١٣/٩).

(٤) تَحْمِيجُ العينين: غُؤُورُهُما ؛وقيل: تصغيرهما لتمكين النظر. اللسان – مادة: حمج – (٢٤٠/٢).

فالشاعر هنا كنَّى عن تعميره بكثرة إطباقه جفنيه، وبتصغير عينيه عند محاولة رؤية الأشياء، وهي من علامات الكبر التي طرأت على المعمّر، والتي لم يكن يعهدها من قبل، وقد ختم أبياته بتشبيه الإنسان وهو يتقلَّب في أطوار عمره ؛بحال الشجر ومراحل نموّه من بذره إلى ذبوله ويبسه، وأصاب في تشبيهه ؛بسبب الملاءمة المرحلية بين الحالين، ويُلاحظ أن الشاعر شحن أبياته السابقة بالعديد من الكنايات عن التعمير ؛كـ(نَوْمُ العِشَاءِ)،(سُعَالٌ بالسَّحَرْ)،(قِلَّةُ النَّوْمِ)،(قِلَّةُ الطَّعْمِ)، وهي كلّها مما يصيب المعمّر، ويثقل كاهله، ويحرمه التلذّذ بالحياة ؛كما يذكر دريد بن الصِّمَّة[١]:

ونومةٍ لستُ أَقْضِيها وإنْ مَتُعَتْ ∴ وما مضى قبل من شَأْوِي ومن عُمري

وعامر بن الظَّرب العَدواني[٢]:

وأَسْهَرُ ليلي على أنني ∴ أُراعِي الدُّجى ما أَذُوقُ المنامَا

ومالك بن المنذر البَجَلي[٣]:

قليل الطَّعَامِ عَسِير القِيَا ∴ مِ قد تركَ الدَّهرُ قَيْدي قَصِيرا

أَبيتُ أُراعي نجومَ السماءِ ∴ أُقَلِّبُ أمري بطونًا ظهورا

فإن هؤلاء المعمّرين وصفوا أحوالهم بما ترى، من قلة النوم، وعدم الراحة فيه، وانعدام الشهية للأكل، والسهر والأرق ؛وما يصاحبه من مرضٍ وسعالٍ، ولشدة لزوم هذه العلات للمعمّر صدق معها تعبيره وكنايته بها عن مرحلة التعمير ؛حتى وكأن التعمير اُختزل في هذه الأعراض، لكثرة ما جرت الشكوى منها من قبل الشعراء المعمّرين، إلا أن مالك بن المنذر البَجَلي زاد على

(١) ديوانه – طبعة دار المعارف – ص ١٠٤، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٢١.
(٢) التيجان ص ٢٦٤، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٤٤.
(٣) ديوان الشعراء المعمّرين ص ٥٢٢.

رفاقه بالكناية بصعوبة الحركة والتنقّل والمشي الصحيح عن التعمير، ويصدِّق ذلك ما قاله المعمّرون ؛كلٌّ بحسب ما ألـمَّ به من تلك العلّة، وبحسب ما علق به من أوضارها ؛كقول خِنَّابة بن كعب العبشمي(١):

أَهمُّ بأشياء كثيرٍ فَتَعْتَقِي ∴ مشيَّةُ نفسٍ، إنَّها ليسَ تَقدِرُ

فهو يريد أن يباشر أعمالًا كثيرةً إلا أن نفسه تعيقه وتمنعه عن ذلك كلِّه؛ بسبب تعميره وحياته التي طالت، فذهب مع طولها قدرته على الحراك ؛الذي تجاوز الأعضاء الخارجية ليصيب نفسه التي بين جنبيه.

وكقول قَرَدَة بن نُفَاثة السَّلولي(٢):

إذا أَقُومُ عَجَنْتُ الأرضَ مُتْكِئًا ∴ على البَرَاجِمِ حتَّى يَذْهَبَ النَّفَرُ

فالشاعر كنَّى عن تعميره بعدم قدرته على القيام ؛لصعوبة حركته، فهو إن أقبل عليه القومُ ؛وأرادَ القيام لهم، فإن مَنْ يشاهده ؛يظنُّ أنه يعجن في طينِ الأرض ؛وما ذاك حاله إلا بسبب كِبَرِه وبلوغه من العمر ما لا يسمح معه القيام مباشرةً، وتصوِّر معاناته تلك ؛لفظةُ (البراجم) وهي مفاصل الأصابع(٣)، فهو إن أراد القيام والنهوض أَكَبَّ على يديه ؛مرتكزًا على رؤوس أصابعه، وهذا القيام قيامُ مَنْ ضعفت رجلاه، ووهنت حركته.

وكقول النّمر بن تولب(٤):

أَصبحتُ لا يَحْمِلُ بَعضِي بَعْضا

---

(١) المعمّرين ص ٨٥.

(٢) ديوان الشعراء المعمّرين ص ٥٠٠، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٦ ؛كما أن هذا البيت يُنسب إلى ذي الإصبع العدواني ديوانه – الطبعة العراقية – ص ٣٤ .

(٣) اللسان – مادة: برجم – (٤٥/١٢).

(٤) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ٧٩، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.

فالنّمر أصبح بعد تعميره خائرَ القِوَى ؛لا تطيق قدماه حملَ جسده، فضلًا عن القيام إذا ما أراد، ومما يُحسب للشاعر في كنايته هذه ؛المسلك الذي سلكه بها، من خلال تلك الألفاظ ألفاظ التبعيض، إذ إنه جعل جسده جزأين، جزءً فوق جزءٍ ضعيفٍ كَلٍّ لا يقوى على حمله ؛ما أعجزه معه القيام بسهولةٍ وسلاسة، ويبدو أن حالَ النّمر بن تولب قد زادت سوءاً بعد ذلك ؛إذ يقول في إحدى قصائده مكنِّيًا عن تعميره(١):

وزهدي فيَكْفِيني اليسيرُ وإنَّني ∴ أَنامُ إذا أُمْسي ولا أَتَعَلَّلُ

فإن ضعفَ جسده لم يُعِقْهُ عن القيام فحسب ؛بل عاقَهُ عن المشي والذهاب إلى مسامرة القبيلة ومجلسها، إذا ما أراد أن يُرَوِّح عن نفسه عندما يسأم ويملّ، ما جعله وكأنه يعيش داخل محبسٍ وسجنٍ ؛حتى أصبح يتمنّى لو أن يُحمل من قبل الأخرين، كما يقول هو في القصيدة نفسها(٢):

تَدَارَكَ مـا بعدَ الشَّبابِ وقبلَهُ ∴ حَوادِثُ أيَّامٍ تَمرُّ وأَغْفُلُ

يَوَدُّ الفتى بعدَ اعتدالٍ وصحةٍ ∴ يَنُوءُ إذا رَامَ القيامَ ويُحْمَلُ

فإنه يحثُّ ويحضُ على استغلالِ المرء لمرحلة الشباب، قبل أن تتعاقب عليه حوادث الأيام ؛وتسلمه إلى مرحلةٍ يتمنّى معها لو أن أحدًا يحمله في غدوه ورواحه.

وكقول زهير بن مَرْخَة(٣):

أَقولُ لأهلي لا تظعنوا ∴ وهاتوا فِرَاشًا وَطِينًا وزَادَا

---

(١) المعمّرين ص ٦٣.

(٢) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ١٠٠، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.

(٣) المعمّرين ص ٦٤.

فقد بلغ سوءُ الحال معه أشدَّ مما بلغ مع النّمر بن تولب ؛إذ إنه تجاوز مرحلة صعوبة القيام، ومرحلة عدم مشيه وذهابه، ومرحلة حمل غيره له ؛ووصل إلى حالٍ يسأل معه أهلَه ألَّا يرحلوا ولا يتنقَّلوا، لصعوبة ذلك عليه، ولما يطاله من المشقّة والتعب، وزهيرٌ يعلم أن طلبه هذا طلبٌ للمستحيل ؛لما عُرف عن العرب من حياة التنقُّل والترحال، فحياتهم لا تكون إلا بين حلٍّ وظعنٍ، ولا يمكن لها الاستقرار ؛كما استقرت قوى زهيرٍ، ولكنه التعمير وما يجنيه على صاحبه من تطلُّبٍ للمستحيل.

ومكمنُ الضعف والعجز عن الحركة والقيام ؛العظامُ، التي يقع عليها العبءُ كاملًا، فهي المسؤولة عن حمل الجسد، وفق خلقة الله تعالى لهذا الإنسان ؛وقد أدرك الشعراء المعمّرون ذلك، وتحسروا كثيرًا على ضعف هذه العظام، وكنَّوا بها في غير موضعٍ من أشعارهم عن مرحلة التعمير ؛كقول مرْداس بن صُبيح[1]:

فإنِّي قد كبرتُ ورَقَّ عَظْمِي ∴ وأَسْلَمَنِي لَدَى الدَّهْرِ الهَنَاتُ

وقول الربيع بن ضَبُع الفزاري[2]:

أَلا أَبلِغْ بَنِي بَنِي رَبِيعٍ ∴ فأَشْرارُ البنينَ لكم فِدَاءُ

بأنِّي قد كبرتُ ودَقَّ عظمي ∴ فلا تَشْغَلْكم عني النساءُ

فإن الشاعرين كنَّيَا عن تعميرهما بضعف العظام ؛والذي أحوجَ الربيع بن ضَبُع أن يطلب من بنيهِ مساعدته وملازمته ؛وعدم الانشغال بالنساء وشؤون الحياة عنه، وأُلاحظُ على هاتين الكنايتين أمرين:

---

(١) المعمّرين ص ٣٥.

(٢) المعمّرين ص ٧.

الأول: تعبيرهما بـ(عظمي) بدلًا من (عظامي) ؛فالتعبير هنا بالمفرد عوضًا عن الجمع أراه يفيد بأن الضعف أصاب جميع العظام، وتسرَّبَ إليها عظمًا عظمًا ؛ لذا ناسبَ التعبير هنا بالمفرد دون الجمع.

الثاني: استخدام الربيع بن ضَبُع لفظة (النساء) ؛كان بمكانٍ في هذا البيت، فالانشغال بالنساء يقبع تحته انشغالاتٌ عدّة، فالانشغال بالنساء ؛يستلزم الانشغال بأبنائهن، والانشغال بشؤون البيت والمعاش، وتحته ما تحته من الانشغالات، فالربيعُ لـمَّا طلبَ من أبنائه وحفدته عدم الانشغال عنه بالنساء ؛فكأنه يطلب منهم عدم الانشغال عنه بما ذُكر من مشاغل، بل عدم الانشغال عنه البتّة ؛لأنه ليس ألزم على الرجل من الاهتمام ببيته وأهل بيته وتدبير شؤون الحياة، ومن سلم من الانشغال بهم ؛فقد خلصَ له وقتُه.

وإن كانت عظام مرْداس والربيع قد دقَّت ورقَّت ؛فإن من المعمّرين من تفتَّتتْ عظامُه، وانسحقت مُشَاشُهُ ؛كزهير بن مَرْخة، إذ يقول(١):

كَبِرْتُ وأَمْسَتْ عِظَامِي رَمَادَا ∴ وما تَأْمَلُ العينُ إلا رُقَادَا

فالكناية عن التعمير تقع هنا في ضعف العظام، أما المعاناة ؛فإن الشاعر عبَّر عنها بقوله (وما تَأْمَلُ العينُ إلا رُقَادَا)، فيا الله من حجم تلك المعاناة!، التي تسبَّبَ بها تآكلُ العظام بفعل السنين، فزهيرٌ لا يتمنّى سوى إغماضة، ولو يسيرة ينفكُّ بها من ألم العظام ؛التي لم يَعُد يكسوها إلا الجلد ؛كما يخبر بذلك المعمّر عَوَّامُ بن المنذر بن لأم بقوله(٢):

متى تَنْزِعَا عنِّي القميصَ تَبَيَّنَا ∴ جآجيءَ(٣) لم يكسيْنَ لحمًا ولا دَمَا

---

(١) المعمّرين ص ٦٤.

(٢) المعمرون ص ٧١ ؛وفي اسم الشاعر هناك اختلافٌ، أهو عوَّام أ عرّام.

(٣) الجُؤْجُؤُ: الصَّدْرُ ؛وقيل: عِظامُه، والجمع: الجآجئُ. اللسان – مادة: جأجأ – (٤١/١).

فإنه كنَّى بظهور عظام الصدر عن الهزال الذي أصابه، وهو كناية عن عدم التغذية وأكل الطعام، وهو كناية عن فقد الشهية، وهو كناية عن التعمير ؛فإن الإنسان إذا ما بلغ سنينَ طويلةً من عمره ؛فإنه يفقد شهيتَهُ للطعام، والشاعر وُفِّق في اختياره عظام الصدر من سائر عظامه ؛لأن عظام الصدر لا تظهر إلا إذا بلغ الهزالُ والضعفُ بالإنسان أشدَّهُ، ولفقد اللَّحم الذي يكسو العظام شأنٌ مع المعمّرين ؛كما يذكر عدي بن حاتم الطائي في قوله(١):

فإنِّي قد كَبِرْتُ ورَقَّ عظمي ∴ وقلَّ اللَّحمُ من بعدِ النَّقَاءِ
وأصبحتُ الغَداةَ أُريدُ شيئًا ∴ يقيني الأرضَ من بَردِ الشتاءِ

فإن الشاعر بعدما كنَّى عن تعميره برقّة عظمه وقلّة لحمه ؛أخبر بأن ذلك تركه عرضةً لمقاساة البرد وألمه، فلا لحمَ يكسو عظامه ؛فيقيه من البرد، ما ضاعف المحنة عليه، ومن مشكلة خلوّ العظم من اللّحم ؛تنبثقُ معضلةٌ أخرى لدى المعمّرين، والذي عبَّر عنها النّمر بن تولب في قوله(٢):

أشكو العُرُوقَ النابياتِ نَبْضَا
كما تشكي الأَرْحَبِيُّ الغَرْضَا
كأنَّما كان شبابي قَرْضَا

فقد كنَّى عن تعميره بظهور العروق ؛والتي لا تظهر عادة إلا عند الكِبَرِ والهزالِ، وخلوِّ الجسم من اللحم والشحم ؛لذلك قال أوس بن حجر يصف امرأةً هزيلةً مع ولدها(٣):

وَذَاتُ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا(٤) ∴ تَصْمِتُ بِالمَاءِ تَوْلَباً جَدِعَا

---

(١) المعمّرين ص ٣٦.
(٢) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ٧٩، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.
(٣) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ٥٥.
(٤) عارٍ نواشرها أي: بادية وظاهرة ؛لهزالها.

هذا وقد عَدَّ بعض المعمّرين ظهورَ واختلاف تلك العروق ؛علامـــةً مـــن علامات قرب الأجل ؛كما عبَّر المعمّر لقمان بن عاد الحميري بقوله(١):

يا لَقومي نَعَى إليَّ بموتي اختلافُ النّسا وحَبْلِ الوَتين

فهو يرى بعد أن عمّر طويلًا اختلافَ عرقي النسا والوتين ؛نعيًا له، وآيةً تؤذن بدنو أجله، واقتراب منيّته، وإذا كان هذا حال عروق المعمّر ؛فكيف يكون حال جلده الذي حوى هذه العروق؟!، يخبرنا بحاله النّمر بن تولب ؛إذ يقول(٢):

لَعَمْري لقد أَنْكَرْتُ نفسي ورَابَنِي ∴ مع الشَّيْبِ أَبْدَالي التي أَتَبَدَّلُ

فصـولٌ أَرَاها في أديمـي بعدما ∴ يكون كِفَاف اللّحمِ أو هو أفضلُ

فإنه راعَهُ من نفسه تلك التغيرات التي حدثت في جسده بعد تعميره، فقد أنكر نفسه، ومنظر جلده ؛الذي بدت عليه آثار الكِبَر، ولعلّ أول تلك الآثار هـــو ترهل الجلد وتخدّد اللّحم واضطرابه تحته ؛كما يقول أحد المعمّرين وهو الشَّمّاخ بن الشِّمراخ الطائي(٣):

ما بَالُ شيخٍ قد تَخَدَّدَ لحمُه(٤) ∴ أبلى ثلاثَ عمائم ألوانا

فقوله هذا يحمل كنايتين عن التعمير، أما الأولى فهي قوله (شيخٍ قد تَخَدَّدَ لحمُه) أي هزل وترهّل واختلف عن موضعه ؛ بسبب التعمير.

---

(١) التيجان ص ٨٤، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٣.

(٢) ديوانه – طبعة دار صادر– ص ٩٨ ؛والبيتان في (المعمّرين) ص ٦٣بغير هذا الترتيب ؛إذ يفصل بينهما ثلاثةُ أبياتٍ.

(٣) المعمّرين ص ٨٢.

(٤) خَدَّدَ لحمُه وتَخَدَّدَ: هزل ونقص ؛وقيل: التَّخَدُّد أن يضطرب اللحم من الهـــزال. اللســـان – مادة: خدد – (١٦٠/٣).

أما الكناية الثانية فهي قوله (أبلى ثلاثَ عمائم) ؛والعرب كانت تلبس العمامة أربعين سنةً، والشَّماخ أفنى ثلاث عمائم، ما يدل على أنه عاش ما لا يقلّ عن مئةٍ وعشرين سنةً[١].

وإن كان حالُ عظام المعمّر ما ذُكر ؛فإنه لا يسلم من الرّعشة، التي هي ملازمةٌ لضعف العظام، وقد كنَّى بالإصابة بها المعمّرون عن تعميرهم في غير موضعٍ من أشعارهم ؛كقول أُميَّة بن الأسكر الكناني[٢]:

تركتَ أباكَ مُرْعَشَةً يداهُ ∴ وأُمَّكَ ما تسيغ لها شَرَابا

وقوله أيضًا[٣]:

يا ابني أُميَّة إنِّي عنكما غَانِي ∴ وما الغِنى غَيْرَ أني مُرْعشٌ فانِي

فإنه كنَّى برعشته عن المرحلة العمرية التي يعيشها ؛ويواجه المتاعب فيها، ويلاحظ في كناية أُميَّة الأولى أنه أضاف الرعشة ليديه ؛وليس ذلك بمستغربٍ، فالرعشة أكثر ما تبدو في اليدين، كما أن هناك أمرًا آخر سوَّغَ – في نظري – إضافة الرعشة لليد ؛فأُميَّة هنا في مقام استجداء واستعطاف لابنه الذي تركه، ويطلب منه العودة إليه، فحريٌّ به أن يذكر أن يديه أصابتها الرعشة ؛مسببةً له تعطّل في وظائفها، ومعلومٌ أن الإنسان يستخدم يديه في كثير من شؤونه، ويُباشر بها الكثير من الأعمال، أما وقد رعشت وتعطَّلَ عملها ؛فإنه في أشد الحاجة لمساعدة الآخرين لا سيما الأبناء، وذلك أجدى عند طلب عودتهم.

---

(١) ينظر إلى ما قاله أبو حاتم السجستاني في (المعمّرين) ص ٨٣ ؛إذ إنه خرَّج قول الشاعر السابق على وجهين: الأول ما ذكرتُه ؛وعليه جرت الكناية، أما الثاني فإن أراد بقوله السابق أنه كان شابًا ؛وهو ما فهمه البرقوقي حينما استشهد بالبيت في كتابه (الفردوس) ص٣١.

(٢) المعمّرين ص ٦٨.

(٣) ذيل الأمالي لأبي علي القالي – المطبوع مع الأمالي – ص ٦٥٧،وخبر تعمير أمية بن الأسكر في (المعمّرين) ص ٦٧.

ومِـــمَّنْ عانى من الرّعشة وكنَّى بها عن تعميره دريدُ بن الصِّمَّة ؛وذاك إذ يقول(١):

وَيْحَ ابنَ أَكْمَةَ مـــاذا يريدُ ∴ من المُرْعِشِ الذَّاهبِ الأَدْرَدِ

فَـأُقْـسِمُ لـو أنَّ بي قُـــوَّةٌ ∴ لَـوَلَّتْ فَـرَائصُـهُ تُـرْعَـــدِ

ويَا لَهْفَ نفسي ألا تكـون ∴ معي قُـوَّةُ الشَّـــارخِ الأَمْرَدِ

فإنه يصوِّر جانبًا من معاناة المعمّرين ؛فهو يتمنَّى عــودةَ قوَّتــه أيـــام شبابه، كي يصدَّ المعتدي، الذي لم يزجره حالُ دريد، وما أصابه من رعشة، كما أن دريدًا كنَّى عن تعميره بكناية أخرى غير الرعشة ؛وهي قوله (الأَدْرَدِ) وهــو مَنْ سقطت أسنانه(٢)، فقد عبَّر بسقوط الأسنان ؛مُكَنِّيًا بذلك عن تعميره، وسقوط الأسنان وفقده ؛يُعَدُّ ملمحًا من أهمِّ ملامح مرحلة التعمير، لذا صدقت الكنايةُ بها عنها، وقد أكثر الشعراء المعمّرون بالكناية به ؛كقول عامر بن جُوَيْن الطائي(٣):

المـرءُ يَبكـي للسلا ∴ مةِ والسَّـلامَـــةُ لا تُحسّهْ

أَوَ سَـالِـمٌ مَنْ قد تَثَنَّـ ∴ ـى جِلـــدُّهُ وابيَضَّ رأسُـهْ

أو دَبَّ من هَـــرَمٍ وأَوْ ∴ دَى سمعُهُ وانفَقَّ ضِرسُهْ

فالشاعر يستغرب من المعمّر الذي يطلب السَّلامة من الموت ؛وقد تجعَّـدَ وتثنَّى جلده، وذهبت أسنانه وأضراسه، وهما كناية عن التعمير وطول الحيـــاة، ويتعجَّب كيف يسلم مَنْ كان هذا حال جسده؟!.

---

(١) ديوانه – طبعة دار المعارف – ص ٨٣، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٢١.

(٢) الدَّرَد: ذهاب الأسنان، دَرِدَ دَرَداً ورجل أَدْرَدُ ؛ليس في فمه سن. اللســـان – مـــادة: درد – (١٦٦/٣).

(٣) المعمّرين ص ٤٢.

وكقول النّمر بن تولب[١]:

أَوْدَى الشَّبابُ، وحُبُّ الخَالَةِ الخَلَبَه ∴ وقد بَرِئْتُ فما بالصَّدْرِ من قَلَبَه

وقد تَثَلَّم أَنيابي وأَدْرَكَني ∴ قِرْنٌ عَلَيَّ شديدٌ فَاحِشُ الغَلَبَه

يذكر بأن الشباب ذهب عنه ؛وذهب معه كلُّ الملذات، وهبطت عليه مرحلةُ أرذل العمر ؛والتي كنَّى عنها بقوله (تَثَلَّم أَنيابي) أي تكسَّرت[٢]، وقد عبَّر بالأنياب هنا وهو يريد الأسنان كلَّها، وتعبيره هذا مجازٌ مرسلٌ علاقته الجزئية، وقد أحسن في تعبيره ؛إذ إن الأنياب هي التي تقطع الطعام في الفم، بخلاف الأضراس التي تطحن، فمن ذهبت أنيابه كأنه أُعدم الطحن والأكل.

ومن المعمّرين مَنْ وضعه فقده للأسنان في موضعٍ يَسُوء ولا يُسرّ ؛كتميم بن مقبل، حيث يقول[٣]:

هَزِئتْ مَيَّةُ أنْ ضَاحَكْتُها ∴ فَرَأَتْ عَارِضَ عَوْدٍ قد ثَرِمْ

فهذه المرأة تهزأُ به بعد أن رأت تكسُّرَ أسنانه ؛بفعل الكِبَر والتعمير، على الرغم من أن تميمًا كان يضاحكها ؛ما يعكس حجم المعاناة، والنظرة الساخرة التي يُواجه بها مَنْ عُمّرَ وطال به الأمد، ومما يُضاعف من سوء أثرِ هذه النظرة ؛صدورها من النساء، وقد يكون لهن عذرٌ في ذلك، فالمعمّرون اعتزلوا النساء اعتزالًا قسريًّاً دون رغبتهم؛ وفي ذلك يقول فَضَالة بن زيد العَدْواني[٤]:

---

(١) ديوانه – طبعة دار صادر– ص ٣٩ – ٤٠، وفي (المعمّرين) ص ٧٨: (وحبُّ الطَّلَّة) بدل (وحُبُّ الخَالَة)، و(تفلَّل أنيابي) بدل (تَثَلَّم أنيابي)، كما أن هذه الأبيات منسوبةٌ في روايته للمعمّر عوف بن الأدرم، إلا أن أبا حاتم السجستاني علّق عليها بأن نسبتها الصحيحية للنّمر بن تولب.

(٢) ينظر اللسان – مادة: ثرم – (٧٦/١٢).

(٣) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ٢٨١.

(٤) المعمّرين ص ٨٣.

لا بَاهَ لي إلا المُنى وأخو المُنى ∴ جَدِيرٌ بأن يُلحَى ابن حربٍ ويُشْتَمَا

فقد كنَّى عن تعميره بعجزه عن واجباته الزوجية إن صحَّ التعبير ؛وذلك بقوله (لا بَاهَ لي إلا المُنى) فهو لا يباشر زوجته بسبب شيخوخته وتعميره ؛بل يتمنَّى ذلك، وذكر أن مَنْ كان ذاك حاله ؛فأولى بالنساء أن يشتمنه لا أن يهزأنَّ به فحسب، فليس بمستغربٍ أن يقع المعمّرون تحت دائرة استهزاء النساء بهم، بل قد يصبحون مرمى لنيران عداوتهن ؛كما يخبر المعمّر عامر بن الظَّرِب العَدْواني بقوله[١]:

عَدُوُّ النِّسَاءِ قليلُ العَزَاءِ ∴ كثيرُ الأَسى ما أَلَذُّ الطَّعَامَا

فقوله (عَدُوُّ النِّسَاءِ) كنايةٌ عن عدم المباشرة، وعدم المباشرة كنايةٌ عن التعمير والشيخوخة، فالمعمّر عدوٌّ للمرأة ؛لا تكلُّ من الاستهزاء به، ولومه وعذله ؛حتى تصل إلى الحالة التي قال عنها المعمّر نُفَيلة بن عبد المَدَان الجرهمي[٢]:

فَانقَضَتْ شِرَّتي(٣) وأَقْصَرَ جهلي ∴ واستَرَاحَتْ عَوَاذِلي من عتابي

وهي حالةُ الاستراحة والكَفُّ عن العذل واللَّوم ؛لعدم جدوى ذلك، خاصة وأن المعمّرين لا يملكون إرجاع شبابهم المنصرم، ولا نشاطهم المنقضي ؛ونفيلة كنَّى عن تعميره هنا بثلاث كنايات، هي:

- انقضاء شِرَّته ونشاطه ورغبته في النساء.
- قوله (أَقْصَرَ جهلي) ؛ويريد بالجهل هنا التصابي والتشبُّب بالنساء، والاهتمام بهن.

---

(١) التيجان ص ٢٦٥، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٤٤.
(٢) البيت وخبر تعمير نفيلة في (التيجان) ص ٢١٠.
(٣) الشِّرَّةُ النشاط والرغبة. اللسان – مادة: شرر – (٤/٤٠٠).

- قوله (استَرَاحَتْ عَوَاذِلي من عتابي) ولها مدلولان هما: عودته إلى سابق عهدته من القوّة والنشاط ؛وهو أمرٌ مستحيلٌ جدًّا، أو يأس أولئك النسوة من المعمّرين ؛ وانقطع الرجاء منهم، مما جعلهن في راحة وتوقُّفٍ عن عذلهم وعتابهم ؛وهذا المدلول هو الذي أراده الشاعر.

وبعد أن يئسَ النساء من المعمّرين ؛فإن الصدَّ والهجرَ نتيجةٌ حتميَّةٌ لهذا اليأس ؛ولذا قال المعمّر ذو الإصبع العَدواني[١]:

ما لِلكَوَاعِبِ يا دَهْمَاءُ قد جَعَلَتْ ∴ تَزْوَرُّ عَنِّي وتُطْوَى دُوني الحُجَرُ

قَد كُنْتُ فَرَّاجَ أبوابٍ مُغلَّقَةٍ ∴ ذَبَّ الرِّيادِ إذا ما خُولِسَ النَّظَرُ

لا أَسْمَعُ الصَّوتَ حتَّى أَستَدِيرَ لَهُ ∴ ليلًا وإن هُوَ نَاغاني به القَمَرُ

فقد كنَّى بصدِّ الكواعب ؛عن تعميره، وكانت الأبواب تفتح له أيام الشباب والقوّة، وأنه كان ممن يُسترق النظر إليهم من قبل النساء، ولكن هذه حياة مَنْ تقدَّمتْ به السِّنُّ وأصبح معمّرًا ؛لا يكاد يسمع المنادي لولا أنه يلتفتُ إليه، ويتوجّه نحوه، وهي كنايةٌ أخرى عن مرحلة التعمير، والحال نفسه مع المعمّر النّمر بن تولب ؛إذ يقول[٢]:

لقد أَصبَحَ البِيضُ الغواني كأنَّما ∴ يَرَيْنَ إذا ما كنتُ فيهنَّ أَجْرَبَا

وكنتُ إذا لاقيتُهنَّ ببلدةٍ ∴ يَقُلْنَ على النَّكرَاءِ أهلًا ومَرْحَبَا

كما أنه يقول في موضعٍ آخر[٣]:

وأصبحتُ قد أَعْرَضْنَ عَنِّي وسؤنني ∴ وأَخلفني عهدُ الخليلِ المُمَاطِلِ

(١) ديوانه – الطبعة العراقية – ص ٣٣ ، ٣٤، والبيت الثالث مع خبر تعميره في (المعمّرين) ص ٩٠.
(٢) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ٣٨، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.
(٣) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ١٠٩، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.

ألا إنَّ شيبَ الـرأسِ لـيس بآفـةٍ ∴ تَضِيرُكَ إلا في النِّسـاءِ الجَوَاهِلِ

فإنَّ النِّساء إذا ما شاهدْنَهُ بينهنَّ ؛ينفرْنَ منه وكأنه مجروب ؛وهو كنايةٌ عن تعميره، وأصبح النساء يسئنَ معاملته، ويغلظنَ عليه ؛بعد أن كان مرحَّبًا به من قبلُ، والنّمر يصخب عليهن، ويرى أن ذلك الفعل لا يصـدر إلا مـن نسـاء جاهلات ؛لا يُقدرْنَ قيمةَ المعمّر، وإن كان أفنى العمر في ملاطفتهنّ وحمـايتهنّ والذَّبِّ عنهنّ، وشيبُ الرَّأس وهو كناية عن التعمير – أكثر المعمّرون وغيـرهم من التَّكنِّي بها ؛لذا أضربتُ صفحًا عن ذكرها في هذا البحث – لا يسوِّغُ لهنّ ما يرتكبْنَهُ في حقِّ المعمّر.

وأتعبتِ الحياةُ المعمّرين ؛وتعبوا وهم يسيرون فيها على رجلين، أثقلتهما أجسادهم المرتعشة ؛وصاروا بحاجةٍ إلى رجلٍ ثالثةٍ، تساعدوا في حمل الجسـد ؛فكانت (العصا)، والتي كثيرًا ما كنَّى بها المعمّرون عن تعميرهم ؛كقول المعمّـر ذي الإصبع العَدْواني[١]:

جَزِعَتْ أُمَامَةُ أن مَشَيْتُ على العصا ∴ وتَذَكَّرَتْ إذ نحن مِ الفتيانِ

كنَّى بقوله (مَشَيْتُ على العصا) عن تعميره، مخبرًا في أثناء ذلـك عـن جزع زوجته مما وصل إليه حاله، إذ تذكَّرتْ ما كان عليه من قوّةٍ ونشاطٍ أيـام الشباب والفتوة ؛مما ضاعفَ جزعَها، كما أنه يقول في موضعٍ آخر[٢]:

وكنتُ أَمشِي على الرِّجلينِ معتدلًا ∴ فصرتُ أَمشِي على ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ

فقد حمل هذا البيت ثلاث كنايات:

(١) ديوانه – الطبعة العراقية – ص ٩٩، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٩٠.
(٢) ديوانه ص ٣٤.

الأولى: قوله (كنتُ أَمشِي على الرِّجلينِ معتدلًا) وهو كنايةٌ عن مرحلة الشباب والقوّة ؛وقرينتها السياق العام للقصيدة؛ إذ ورد فيها ذكره لشيخوخته وتبدّل أحواله من قوّةٍ إلى ضعف.

الثانية: قوله (ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ) وهو كنايةٌ عن موصوفٍ هو العصا.

الثالثة: قوله (فصرتُ أَمشِي على ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ) وهو كنايةٌ عن تعميره ؛إذ إن أصبح شيخًا معمّرًا لا يقوى على المشي إلا أن يستندَ على العصا.

وقد لفت نظري قولُه (فصرتُ أَمشِي على ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ) ؛حيث إنه كنايةٌ في جوفها كنايةٌ، ففي العبارةِ كنايةٌ كُبرى (فصرتُ أَمشِي على ...) ؛لا تتمُّ إلا إذ أُجريت الكناية الصغرى وهي قوله (... ما تُنْبِتُ الشَّجَرُ)، فالعبارة بشكلها المباشر تكون (فصرتُ أَمشِي على العصا) ؛ولكنّه داخلَ في كنايتيه كما رأينا، وهو نوعٌ ظريفٌ لطيفٌ، لعلّي أعود إليه في بحثٍ آخر ؛أجمعُ ما ورد منه في الكلام العربي، وأُقدِّمه للقارئ.

ومِمَّنْ كنَّى عن التعمير باتِّخاذ العصا (راحلة المعمّرين) كما يقال ؛المعمّر لبيد بن ربيعة في قوله[1]:

أليس ورائي إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ∴ لُزُومُ العَصَا تُحْنَى عليها الأَصَابِعُ

فهو يعرف النتيجة والمآل الذي سوف يواجهه المعمّر ؛وهو الاستعانة بالعصا، واتِّخاذها رِجْلًا ثالثةً، ولبيد عبَّرَ هنا بـ(اللُّزوم) وليس بشيء آخر كالاتخاذ أو الاستعانة ؛ ليُصَوِّرَ مدى حاجةِ المعمّر المُلِحّة للعصا، ذلك أنه لا يمكن له الاستغناء عنها ؛ ويُثْبِتُ ذلك ما قاله في عجز البيت وهو (تُحْنَى عليها الأَصَابِعُ)، وهل الشيء الذي تُحنى عليه الأصابع ؛إلا ما يحرص المرءُ على إمساكه والتشبث به؟.

---

(١) المعمّرين ص ٦١، ديوانه – بشرح الطوسي – ص ١١٢.

ومِـــمَّنْ كنَّى بها أيضًا:

تميم بن مُقبل في قوله[١]:

وقَدَّمْتُ قُدَّامِي العَصَا أَهْتَدِي ∴ وأَصْبَحَ كَرِّي للصَّبَابَةِ أَعْسَرَا

والمعمّر كعب بن رداة النخعي في قوله[٢]:

عَلَى الرَّاحتينِ مَرَّةً وعَلَى العَصَا ∴ أَنُوْءُ ثلاثًا بعدهنَّ قيامي

والمعمَّر عوف بن سُبَيع القضاعي في قوله[٣]:

وبُدِّلَ من طِرْفٍ جَوَادٍ حَشِيَّةً ∴ ومن قَوسِهِ والرُّمحِ والصَّارِمِ العَصَا

والمعمّر مرْدَاس بن صُبَيح في قوله[٤]:

أَدِبُّ عَلَى العَصَا لم يَبْقَ إلا ∴ لسانٌ صَارِمٌ عضْبٌ حُتَاتُ

والمعمّر مسعود بن مصاد الكلبي في قوله[٥]:

أَمْشِي على مِحْجَنٍ(٦) والرأسُ مُشْتَعِلٌ ∴ هيهات هيهات طالَ العيشُ والعمرُ

فكلُّهم مِـــمَّنْ اتَّخذَ العصا رِجْلًا ثالثةً ؛وكنَّى بها عما آلت إليه حياته مـــن طول عمرٍ، وتعميرٍ أثقل كواهلهم، وأحنى هاماتهم.

ثم سارت عجلةُ الحياة بأولئك المعمّرين ؛ومعها تهاوت أعضاء أجسادهم واحدًا تلو الآخر، وفقدوا من صفاتهم الجسدية الشيء الكثير، وهذا الفقدُ وصـــل

---

(١) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ١١٠.

(٢) المعمّرين ص ٧٤.

(٣) المعمّرين ص ٥٦ .

(٤) المعمّرين ص ٣٥.

(٥) المعمّرين ص ٥٦.

(٦) الـــمِحْجَنُ: عَصاً مُعَقَّفة الرأْس ؛كالصَّوْلجان. اللسان – مادة: حجن – (١٠٨/١٣).

إلى أشياء حياةُ العربي لا تستمرّ كاملةً دونها، وصل الحالُ بهم إلى عدم مقدرتهم على حمل السلاح، وهو عُدَّة الفارس الذي لا يصبر على فراقه ؛يُصوِّر ذلك المعمّر مسعود بن مصاد الكلبي ؛في قوله(١):

أصبحتُ يا أُمَّ بكرٍ قد تَخَوَّنَني ∴ ريبُ الزَّمانِ وقد أزرى بي الكِبَرُ

لا أستطيعُ نُهُوضاً بالسِّلاحِ ولا ∴ أمضِي الهمومَ كما كنتُ أبتَكِرُ

وأُميَّة بن الأسكر الكناني ؛في قوله(٢):

فإمَّا أُصْبِحْنَ شيخًا كبيرًا ∴ وراءَ الدارِ يُثْقِلُني سلاحي

فعدم حمل السِّلاحِ كنايةٌ عن الضَّعف، والضَّعفُ كنايةٌ في هذا المقام عن التعمير، وهذه العجز اتخذَ أشكالًا مع المعمّرين ؛فمسعودٌ لا يقوى على النهوض وهو متقلِّدًا سلاحه، أما أُميَّة فإنه ينهض ولكن السِّلاح يثقل عليه ؛مع ما في قوله (وراءَ الدارِ) من دلالة على الذلّ الذي وصل إليه، فهو لم يعد أمام الدار، وإنما وراء الدار يكابد ثقل السِّلاح، وقد يكون عدم حمل السِّلاح متأتي من انعدام الداعي إلى حمله، فالمعمّر لا يستطيع شنَّ غارةٍ ولا إغاثةَ مستنجدٍ، مثلما كان يفعل في السابق ؛فلمَ حمل السِّلاح؟ ؛كما أخبر بذلك النّمر بن تولب في قوله(٣):

وبُطئ عن الدَّاعي فلستُ بآخذٍ ∴ إليه سلاحي مثل ما كنتُ أفعلُ

وإن كان من المعمّرين – كما رأينا – مَنْ لا يقدر على النهوض بسلاحه، ومَنْ نهض به منهم لا يتحمَّل ثقلَهُ ؛فإن منهم مَنْ لا يستطيع حمله البتَّة، كالربيع بن ضَبُع الفزاري ؛إذ يقول(٤):

أصبحتُ لا أَحمِلُ السِّلاحَ ولا ∴ أَملِكُ رأسَ البعيرِ إن نَفرا

---

(١) المعمّرين ص ٥٦.
(٢) الأغاني – طبعة دار الفكر – (١٨/١٠)، وخبر تعمير أمية بن الأسكر في (المعمّرين) ص ٦٧.
(٣) ديوانه – طبعة دار صادر– ص ١٠٠، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.
(٤) المعمّرين ص ٧.

وحال الربيع هنا أردى من حال أصحابه ؛فهم يستطيعون حمل السِّلاح ولكن مع ثقلٍ، قد يحوِجهم إلى تركه وعدم حمله، أما هو فيعجز عن ذلك، ونلاحظ هنا أنه كنَّى عن تعميره بكنايةٍ أخرى ؛هي قوله (ولا أَملِكُ رأسَ البعيرِ إن نَفرا) فهو كنايةٌ عن ضعفه ؛بفعل السِّنِّ والكِبَر، فالمعمّرون لم يفقدوا القدرة على حمل السلاح وحسب ؛بل فقدوا معه ما يستتبع تقلُّدَ السلاح وهو الركوب، وهو معاناة أخرى للمعمّر ؛فمع كلّ ما فقده من صفاتٍ وسماتٍ جسدية، ها هو يفقد الفروسية، وهي ما هي عند العرب، ذات الشأن والمكانة، ولها نصيبٌ كبيرٌ من اهتمام القبيلة العربية، لأن بقاء القبيلة منوطٌ بفرسانها، ومن يفقد هذه السِّمة ؛فلا مكان له وإن كان معمّرًا، والربيع ليس وحده في ذلك ؛بل معه مَنْ يُشاركه من المعمّرين في هذه المعاناة ؛كعدي بن حاتم الطائي القائل(١):

وإنْ عَدَا بي الكُمَيْتُ منطلقًا ∴ لم تَمْلِكِ الكَفُّ رَجْعَةَ الفَرَسِ

فقد كنَّى عن تعميره من خلال ضعفه المتمثِّل في عدم استطاعتهِ كبح جماح فرسهِ، ونلاحظ استخدامه المجاز المرسل في مفردات كنايته السابقة ؛من خلال لفظة (الكفّ) فقد أطلقها وهو يريد اليدَ كاملةً أو الجسدَ كلَّه، فعلاقة المجاز هنا هي الجزئية.

وممَنْ كنَّى بذلك عن تعميره أيضًا؛ محصَّن بن عتبان بن ظالم الزّبيدي، في قوله(٢):

أَلا يا أَسْمَ أَعْيَاني الرُّكُوبُ ∴ وأَعْيَتْنِي المكاسِبُ والذُّهوبُ

فهو يخاطب أسماء ويخبرها بأن الرُّكوبَ أتعبه ؛وهو كنايةٌ عن ضعفه وتعميره، ونلاحظ هنا أنه عبَّر بالرُّكوب خلافًا لسابقيْه ؛مما أفاد مدى تردي صحته وضعفه، فالرُّكوب يشمل الفروسيةَ وغيرها، فهو عاجزٌ عن منافحة الفرسان، بل حتى الرُّكوب للسَّفر أو لقضاء الحاجات، فهو متعذِّرٌ عليه.

---

(١) شعر طيئ (٦٣٩/٢)، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٣٦.

(٢) المعمّرين ص ٢١.

الفصل الثاني

كناياتهم عن التعمير بما فقدوه من سمات معنوية

رأينا في الفصل الأول كيف كَنَّى المعمّرون بما فقدوه من سمات جسديةٍ ؛عن تعميرهم، وفي هذا الفصل سنتعرّف على ما كنَّوا به مما فقدوه من سمات معنوية، وهي سماتٌ لا تقلُّ أهميةً ولا شأوًا من السمات الجسدية الظاهرة، ولعلّ أولّ ما فقدوه من صفاتٍ وسماتٍ معنويةٍ وكنَّوا به ؛هو أسماؤهم وألقابهم، وفي ذلك يقول المعمّر النّمر بن تولب[١]:

دَعَاني العَذَارى عَمَّهُنَّ وخِلْتُنِي ∴ لي اسمٌ فلا أُدْعَى به وهو أَوَّلُ

فإنه كنَّى عن تعميره ؛بأنه أصبح يُنادى بـ(العَمّ) ؛ما جعله يستنكر ذلك ويذكِّرُ بأن له اسمًا يُفضّل أن يُنادى به، وذكرُ الشاعر (العَذَارى) في بيته دون فئات المجتمع الأخرى ؛ضَرَبَ بثقلٍ نفسيٍّ على أولئك المعمّرين، فالعربي لا يهتمُّ بأمرِ الشَّيب ولا يحفل به، إلا إذا كان ذلك الشَّيب مانعًا وحائلًا بينه وبين النساء ؛فإنه ينظم الأشعار في تزيينه وتجميله في أنظارهنَّ، وهذه أشعارهم تدلك على ذلك.

وإذا كانت دعوة المعمّر بـ(العمّ) تشعر بنوعٍ من الاحترام والتبجيل ؛فإنه لم يدم ذلك الاحترام كثيرًا، إذ تحوَّل إلى تبرُّمٍ وتأذٍّي وضيقٍ بأولئك المعمّرين ؛ وفي ذلك يقول المعمّر حارثة بن عبيد الكلبي[٢]:

تَأَذَّى بي الأَقاربُ إذ رَأَوْني ∴ بَقِيتُ وأينَ منِّي اليومَ موتي

---

(١) ديوانه – طبعة دار صادر– ص ١٠١، وفي (المعمّرين) ص ٦٣ روايةُ البيت:
وتسميتي شيخًا وقد كان قبله لي اسمٌ فلا أُدْعَى به وهو أَوَّلُ
(٢) المعمّرين ص ٧٥.

فتَأَذِّي الأقارب ؛كنايةٌ – وقرينتها السِّياق – عن طول البقاء، وطول البقاء ؛كنايةٌ عن التعمير، لأنه مستلزمٌ ومستتبعٌ له، وتخصيص الشاعر التَّأَذِّي لـ(الأقارب) بَيَّنَ حجم المعاناة ؛لأن أقارب المعمّر هم أكثر الناس رأفةً به، وعطفًا عليه، أمَّا وقد تأَذَّوا به وجفوه ؛فالأباعد أولى بذلك من الأقارب، والأمرُ عينُه فعل المعمّر كعب بن رداة النخعي ؛إذ يقول(١):

لقد مَلَّني الأَدْنَى وأَبْغَضَ رُؤْيتي ∴ وأَنْبَأَني ألا يحلَّ كلامي

فإن قرابتَهُ ملَّوه وكرهوا رؤيته، بل وأصبح كلامه لا يُسمع ولا يُؤخذ عنه، كأنه مات وهو حيٌّ ؛حتَّى ملَّ المعمّر نفسه من ذلك، بفعل هذه التصرُّفات ؛وفي ذلك يقول المعمّر بحر بن الحارث الكلبي(٢):

مَلَّ المَعَاشَ ومَلَّ الأَقْرَبُونَ له ∴ طُولَ الحَيَاةِ وشَرُّ العِيشَةِ الكَدَرُ

فالملُّ هنا يسير في اتجاهين: الاتجاه الثاني هو ملُّ قرابةِ المعمّر من طول حياته، وربما لما يحتاجه من مزيد عناية، وكثير رعاية، أمَّا الملُّ الأول فهو ملُّ المعمّر من حياته هذه ؛التي لم يُرَاعِ فيها الأقربون حقَّ القرابة، حيث إنه لم يحظَ من الاحترام والتقدير ؛ما وفَّرَهُ له كِبَرُ سنِّه، وكثرةُ تجاربه، حتَّى أصبح أولئك الأقربون يتمنَّون موتَ المعمّر، ويتشوَّفون لسماعِ خبر نعيه ؛ولو بالظَّنِّ كما يقول المعمّر مسافع بن عبد العزى الضِّمري(٣):

يَظُنُّونَ أنِّي بَعْدَ أَوَّلَ ميِّت ∴ فَأَبْقَى ويَمْضِي وَاحِدٌ ثمَّ وَاحِدُ

فقالوا له لمَّا رَأَوا طُوْلَ عُمره ∴ تَأَتَّ لِدَارِ الخُلدِ إنَّكَ خَالِدُ

غِضَابٌ عَلَيَّ أَن بَقِيْتُ وإِنَّنِي ∴ بِوِدِّي الَّذي يَهْوَوْنَ لو أَنا وَاجِدُ

---

(١) المعمّرين ص ٧٤.

(٢) المعمّرين ص ٥٦.

(٣) المعمّرين ص ٢٤.

فقد كنَّى عن تعميره ؛بطول حياته وتَـمَلْمُلِ الناس من هذا الطـول، بـل وغضبهم منه ؛حتى تمنَّى هذا المعمّر المسكين لـو أنـه يفـارق تلـك الحيـاة الـمشؤومة، التي جرَّت عليه هذا الظَّنَّ المؤلِـمَ، والغضـب غيـر الـمُبَرَّرِ، ولعمرك أي سأمٍ يعيشه المرءُ ؛كهذا الذي عاشها المعمّرون، وفي ذلـك يقـول المعمّر أوس بن ربيعة الأسلمي[١]:

لقد عُمِّـرتُ حتَّى مَلَّ أهلي ∴ ثوائي عندهم وسَئِمْتُ عُمرِي

وحُقَّ لِـمَنْ أَتَتْ مائتان عَامًا ∴ عليه وأَرْبَعٌ مـن بَعْدِ عَـشْرِ

يَمَلُّ مـن الثَّـوَاءِ وصُبْحُ يَوْمٍ ∴ يُغَادِيهِ ولـيلٌ بَعدُ يَسْـرِي

كنَّى عن تعميره بثلاث كناياتٍ:

الكناية الأولى: قوله (مَلَّ أهلي ثُوائي).

الكناية الثانيـة : قوله (يـمَلُّ من الثَّوَاءِ) ؛وقد مرَّت طريقةُ إجرائهما من أنهما كنايةٌ عن التعمير.

الكناية الثالثـة : قوله (سَئِمْتُ عُمرِي) فالسَّأمُ لم يتسرَّبْ إليه إلا بعد أن عُمِّـرَ وطال عمره، وطالت معها معاناته ؛مما يلقاه من أهلِه وذويه، وهـي مـن الكنايات المؤسفة التي عبَّر بها المعمّرون ؛عمَّا وجدوه في مرحلة تعميرهم، من سوء المكافأة، ونكران الجميل ؛ما حدا بهم إلى الإكثارِ من التَّكَنِّـى بهـا عن هذه المرحلة من حياتهم ؛وهو أمرٌ ينبئُ عن فقدهم لسمةٍ وخُلّةٍ معنويةٍ ذاتِ أهمِّيةٍ في النفس البشرية، وهي صفة التفاؤل والإقبال على الحياة، ومن ذلك ما كنَّى به المعمّر كَهْمَس بن شعيب الدّوسِي قوله[٢]:

(١) المعمّرين ص ٧٤.

(٢) المعمّرين ص ٢٣.

وقد عِشْتُ حتّى مَلَلْتُ مَعِيْشَتِي ∴ وأَيْقَنْتُ حَقًّا أَنْ سَأَلْقَى المُوَكَّلا

وزهير بن جناب الكلبي أيضًا في قوله(١):

لَقَد عُمِّـــرْتُ حَـــتَّى ما أُبَالي ∴ أَ حَتْفِي في صباحي أو مسائي

وحُقَّ لِمَنْ أَتَتْ مائتانِ عامًا ∴ عليه أَن يَمَـــلَّ مِـــن الثَّـــوَاءِ

والمعمّر المستوغِر بن ربيعة في قوله(٢):

ولقد سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها ∴ وعَمِرْتُ من عَدَدِ السِّنِينَ مَئِينَا

والنّمر بن تولب كذلك ؛ في قوله(٣):

فَإِنِّي قد لبستُ العَيشَ حتَّى ∴ مَلَلْتُ من الحياةِ فقلتُ قَدِني(٤)

ولبيد بن ربيعة أيضًا مِـــمَّنْ كنَّى بذلك عن تعميره ؛حيث قال(٥):

ولقد سَئِمْتُ من الحياةِ وطولِها ∴ وسُؤَالِ هذا النَّاس: كيفَ لبيدُ؟

فجميع هؤلاء المعمّرين كَنَّوا بِسَأْمِهم عن طول حياتهم، وهو كنايةٌ عـــن تعميرهم، ولبيد زاد سَأْمُه من خلال تَـــمَلْمُلِهِ من سؤال الناس عن حالـــه ؛مـــا يعكس درجة السأم التي وصل إليها، كما أن مالكًا كَنَّى بكنايةٍ أخرى عن تعميره؛ وهي قوله (وماتَ لِدَاتي) ؛حيث إنه كَنَّى بـــموت لِدَاتِهِ وهم أقرانه في السِّنِّ، فكلُّ من وُلِدَ معه وكان في مثل سنِّه أو يقاربه ؛وهو كنايةٌ عن الحياة الطويلة التـــي

(١) المعمّرين ص ٢٧.
(٢) المعمّرين ص ٩.
(٣) ديوانه – طبعة دار صادر– ص ١٣٣، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.
(٤) قَدْني أي: حسبي، وهو مما يقال عند الاكتفاء من الشيء ؛ينظر: اللسان – مادة: قـــدد – (٣٤٣/٣).
(٥) المعمّرين ص ٦١.

عاشها، وهي من الكنايات الرائجة بين المعمّرين ؛من ذلك ما كَنَّى بـه المعمّـر جعفر بن قُرط العامري في قوله[١]:

لم يَبْقَ يا خذْلةُ من لِدَاتي ∴ أَبو بَنِينَ لا ولا بَنَاتِ

من مسقطِ الشَّمسِ إلى الفرَاتِ ∴ إلا يُعَـدُّ في الأمواتِ

فقد كَنَّى بذهاب لِداته وأقرانه ؛عن طول حياته، وطول حياتـه مسـتلزمٌ لتعميره، وقد يكون مفارقة اللِّدات والأصحاب مؤلِّمًا لهؤلاء المعمّرين ؛كما عبَّـر المعمّر مُضَاض بن عبد المسيح الجُرهمي[٢]:

قد تَجَرَّعْتُ بعدَ طولِ زماني ∴ غَصَّةً حينَ فَارَقُوني اللِّدَاتي

فإنه كنَّى عن تعميره ؛بطول زمانه ومفارقته لأقرانه ولِداتـه بمـوتهم، وأخبر في أثناء ذلك بأنه يتجرَّع الألـم والـمشقَّة من هذا الفراق، ولعـل هـذا الأمر وَلَّدَ الشعورَ لدى المعمّرين بالغربة في دنياهم، فبعد أن كانوا يعيشون مـع أناسٍ فوق الأرض ؛غدا أولئك الناس تحتها، مخلِّفين وراءهم ثُلَّةً من المعمّـرين ؛يتمنَّون لو أنهم يلحقون بهم، تاركين خلفهم حياة التعمير، وما شابها من حزنٍ وألـمٍ وسَأْمٍ ؛وفي ذلك يقول المعمّر ربيعةُ بن عبد الله البَجَلي[٣]:

وقد ذَهَبَ الّذين وُلِدْتُ فيهم ∴ وقد رَحَلَتْ لِشِقَّتِهم(٤) رِكَابي

فهو يُكَنِّي عن تعميره بقوله (ذَهَبَ الّذين وُلِدْتُ فيهم)، ويخبر أن ركابـه سائرةٌ إلى ما ساروا إليه، وكأنه يتمنَّى الذَّهاب إلى ما ذهبوا إليه ؛رغبـةً منـه فيهم، وأسفًا على الحياةِ التي كان يعيشها بينهم، ولعلَّ هذا ما رفع الشعورَ لدى

(١) المعمّرين ص ٤٣.
(٢) البيت وخبر عمير مُضاض في (التيجان) ص ٢١١.
(٣) المعمّرين ص ٧٦.
(٤) الشِّقَّةُ: السَّفر البعيد. اللسان – مادة: شقق – (١٨١/١٠).

المعمّرين إلى حيث أنهم أحسُّوا بألـــم فراق اللِّـــدَات والأقران قبل وقوعـــه، إذ يقول المعمّر أبو الطَّمَحَان القَيني[١]:

أَلا عَلِّلَاني قـبلَ نَـوحِ النَّوَائحِ ∴ وقبلَ ارتقاءِ النَّفس فوقَ الجوانحِ

وقبلَ غَدٍ يا لَهفَ نفسي على غَدٍ ∴ إذا راحَ أصحـــابي ولستُ برائحِ

فهو يستشعر حياة العُزلة والغربة، التي تنتظر المعمّر بعد رحيل ومـــوت أصحابه ولِداته وفراقهم ؛ما جعله يتلهَّفُ على معرفة تلك الحياة، كيف تكـــون، ومع مَنْ؟، وهل هي إلا كما وصف المعمّر ثعلبةُ بن كعب الأوسي[٢]:

لقد صَاحَبْتُ أَقْوَامًا فَأَضْحوا ∴ خُفَاتًا ما يُجَابُ لهم دُعَاءُ

وقـومًا بعدهـم قد نَادَمُـوني ∴ فَأَضْحَى مُقْفِرًا منهم قُـــبَاءُ

مَضَـوا قَصْدَ السَّبيلِ وخَلَّفُوني ∴ فَطَالَ عَلَيَّ بعدهُمُ الثَّـــوَاءُ

أو كما وصفَ المعمّر النَّابغة الجعدي[٣]:

لبسْتُ أُنَاسًا فأَفْنَيْتُهم ∴ وأَفْنَيْتُ بعـدَ أُنَاسٍ أُنَاسَا

ثلاثةُ أهـلينَ أَفْنَيْتُهم ∴ وكانَ الإلهُ هو المُسْتَآسَا[٤]

(١) أبو الطّمحان القيني حياته وما تبقى من شعره لمحمد نـــايف الـــدليمي – مجلـــة المـــورد العراقية : المجلد ١٧ خريـــف١٩٨٨م العـــدد الثالـــث – ص ١٥٨، وخبـــر تعميـــره فـــي (المعمّرين) ص ٥٧.

(٢) المعمّرين ص ٧٢.

(٣) المعمّرين ص ٦٥.

(٤) الـــمُسْتَآسُ: الـــمُسْتَعَاض، مستفعلٌ من الأوس ؛والأوسُ: العطيَّةُ عَوَضًا ؛كما ذكر أبو حاتمٍ بعد الاستشهاد بالبيت. المعمّرين ص ٦٥.

فإن هؤلاء المعمّرون تبدَّلت بهم الدنيا ؛وتعاقب عليهم أقوامٌ بعد أقوامٍ، حتَّى الواحد منهم عاصر من أهليه ثلاثةَ أجيالٍ، فيدركُ أبناء أحفاده ؛كما تواترت بعض الأخبار عن ذلك، وشحن بها أبو حاتم السجستاني كتابه (المعمّرين).

هذا وقد سلكَ المعمّرون بكنايتهم بفقد اللِّدات والأقران عن تعميرهم ؛مسلكًا آخر، أرادوا به تصويرَ طولِ الحياة من بعد أولئك الأقران ؛إذ إنهم جعلوا من لداتهم ومِمَّنْ وُلِدَ معهم ؛أشياءَ ومخلوقاتٍ خلقها الله تعالى عندما خلق هذا الكون، وهي باقيةٌ ما بقي، ليُدلِّلوا بذلك على طول أعمارهم ؛فتقع المبالغةُ في وصفهم لتلك الحياة الطويلة، من ذلك ما قاله عَبَّاد بن سعيد الكندي[1]:

بَليتُ وأَفْنَتْنِي السُّنُونَ وأَصْبَحْتُ ∴ لِدَاتي نُجُومُ اللَّيلِ والقَمَرُ والبَدْرُ

وما قاله عَبيد بن الأبرص[2]:

فَنَيْتُ وأَفْنَاني الزَّمَانُ وأَصْبَحْتُ ∴ لِدَاتي بنو نَعشٍ وزهرُ الفَراقِدُ

فإنهما عبَّرا عن تعميرهما وطول حياتهم ؛بجعل النجوم والكواكب لِداتهما وأمثالهما في العمر، ولكن رحل المعمّرون وبقيت تلك الكواكب والأنواء ؛شاهدةً على ما كابده أولئك المعمّرون، وما عانوه من متاعب ومشاق.

وإذا كنَّا في هذا الفصل نتحدَّث عمَّا فقدَهُ المعمّرون من صفاتٍ معنوية ؛فإننا سنُسيِّر الكلام هاهنا في صفةٍ معنويةٍ اكتسبوها ؛بسبب تعميرهم، وكنَّوا بها عن حياة التعمير، واكتساب تلك الصفة ؛اكتسابٌ بمعنى الفَقْد ؛وهو ما أدخل مناقشتها في فصلنا هذا، إنه صفة (الذِّلَّة)، حيث إن تعميرهم وهوانهم على الناس ؛أورثهم الذِّلَّة، والتي بها فقدوا أهم صفاتهم وسماتهم المعنوية ؛هي صفة العِزَّة، وصفة الذِّلَّة التي هبطت على المعمّرين ؛هبطت وخيَّمت عليهم بأشكالٍ

(١) المعمّرين ص ٧٨.
(٢) المعمّرين ص ٦٠.

مختلفة، فلكلِّ معمّرٍ ما قاساه من تلك الذِّلَّة ؛لذا اختلف تعبيرهم عنها، فمن ذلك قول المعمّر عامر بن جوين الطائي[١]:

مـاذا أُرَجِّـي مـن الفـلاحِ إذا ∴ قُنِّعْتُ وسطَ الظَّعائنِ الأُولِ

مُسْتَعْنِزًا(٢) أَطردُ الكلابَ عن الـ ∴ ـظِّلِّ إذا مـا دَنَوْنَ للحَمِلِ

فإنه كنَّى عن ذلَّته بقوله (مُسْتَعْنِزًا أَطردُ الكلابَ عن الظِّلِّ إذا مـا دَنَـوْنَ للحَمَلِ) ؛يُعضِّد هذه الكناية ما قاله ابن قتيبة حينما أورد البيت وهو يذكر الشَّيب والكبر: «هذا رجلٌ قد كَبر فخلّف مع النساء ؛لأن الشُّبانَ ومن كانت به قوةٌ يركبون إبلهم فيأتون المنزل بكراً، ويأتي النساء والضعفاء بعدُ، وقوله (أطردُ الكلابَ) فذلك أن الكلبَ يأتي في الحرِّ ؛فيستترُ بظلِّ جمله، فيطردُه عنه لئلا ينفرَ به ؛لأنه لا يملكه»[٣]، فعامرٌ عبَّر عن ذلَّته ؛بأن جُعلَ مكانه آخر الرَّكب مع النِّساء والضعفاء، وأيضًا بطرده الكلاب عن بعيره ؛لئلا يجفل فلا يقدر على رده، وكلّ ذلك كناية عن التعمير وما يلقاه المعمّر، ومثله قول المعمّر زهير بن جناب[٤]:

أَلا يا لقومي لا أَرى النَّجمَ طالعًا ∴ من اللَّيلِ إلاَّ حَـاجبي بيميني

مُعَزِّبتي(٥) عند القَفَا بعمودِها ∴ يكونُ نكيري أَن أَقولَ ذَرِيني

---

(١) المعمّرين ص ٤١.

(٢) جاء في اللسان – مادة: عنز – (٣٨١/٥): العَنَزَةُ عصاً في قَدْر نصف الرُّمْح أَو أَكثر شيئاً فيها سِنانٌ مثل سنان الرمح وقيل في طرفها الأَسفل زُجٌّ كزج الرمح يتوكأُ عليها الشيخ الكبير ... وتَعَنَّزَ واعْتَنَزَ: تَجَنَّبَ الناسَ وتَنَحَّى عنهم، وقيل: المُعْتَنِزُ الذي لا يُساكِنُ الناسَ لئلا يُرْزَأَ شيئاً.

(٣) المعاني الكبير (٣٩٢/٢).

(٤) المعمّرين ص ٢٧.

(٥) مُعَزِّبةُ الرجل: امرأَتُه ؛يَأْوي إِليها، فتقوم بإِصلاح طعامه وحِفظِ أَداته. اللسان – مادة: عزب – (٥٩٥/١).

أَمِينًا عـلى سِـرِّ النِّسـاءِ وربّـما ∴ أَكونُ على الأَسرارِ غَيْرَ أَمينِ

ولَلْمَوْتُ خيرٌ من حداجٍ(١) مُوَطَّـإٍ ∴ مـع الظُّـعْنِ لا يـأتي المحلَّ لحينِ

فأبياتُ زهيرٍ السابقة محمولةٌ كلُّها على جناح الكناية:

فقوله(لا أَرى النَّجمَ طالعًا من اللَّيلِ إلاَّ حَاجبي بيميني) كنايةٌ عن ضعف بصره ؛ وهي كنايةٌ عن التعمير كما مرَّ في الفصل الأول.

وقوله (مُعَزِّبتي عند القَفَا بعمودِها يكونُ نكيري أَن أَقولَ ذَريني) كنايةٌ عن ضربه من قبل تلك المرأة ؛وهو كنايةٌ عن ضعفه وذلّته ؛وهو كناية عن تعميره بدلالة سياق الأبيات.

وقوله (أَمِينًا على سِرِّ النِّساءِ وربَّما أَكونُ على الأَسرارِ غَيْرَ أَمينِ) كنايةٌ عن جلوسه دومًا في البيت بين النساء والاطِّلاعِ على أسرارهنَّ وأحاديثهنَّ الخاصة ؛خلافًا لعادة العرب في ذلك، وهو كنايةٌ عن ضعفه وذلَّته وعجزه ؛وكلُّ ذلك مستلزمٌ لتعميره بدلالة السياق، وأقف عند ما ذيَّلَ به كنايته السابقة وهو قوله (وربَّما أَكونُ على الأَسرارِ غَيْرَ أَمينِ) ؛ففيه ما يُشعر بأن زهيرًا كان جلوسُهُ بين أولئك النِّسوة مفروضٌ فرضًا عليهنّ، دونما رغبة منهنَّ ومنه، ولكن كان تعميره وضعفه واحتياجه للرعاية محتِّمًا عليه جلوسه ذلك المجلس.

وقوله (ولَلْمَوْتُ خيرٌ من حداجٍ مُوَطَّإٍ مع الظُّعْنِ لا يأتي المحلَّ لحينِ) كنايةٌ عن ذُلِّه وضعفه بسبب تعميره ؛لعادة العرب من وضعها النِّساء والأطفال وكبار السنّ والعجزة في آخر الركب عند السفر؛ بدلالة ما ذكره في آخر البيت من أنه يصل متأخِّرًا.

---

(١) الحِدْجُ: الحِمْلُ، والحِدْجُ من مراكب النساءِ يشبه المِحَفَّة ؛والجمعُ: أَحْداجٌ وحُدُوجٌ. اللسان – مادة: حدج – (٢/٢٣٠).

ويبدو أن تأخير موضع المعمّرين في ركب السَّفر أو في المجالس ؛بات يؤرِّقُهم، خاصةً إذا ما قارنوه بمكانتهم السابقة ؛وفي ذلك يقول المعمّر حامل بن عَكوة[١]:

أَلا ليتني لم أَغنَ في النَّاسِ ساعةً ∴ ولم أَلقَ أَيَّامًا تُشِيبُ الحَزَوَّرَا (٢)

أَ بَعْدَ الأُلى من آل عَكوة قدِّمُوا ∴ كراما وأَصبَحْتُ الغداةَ مُؤَخَّرا

كنَّى الشاعر هنا بكنايتين ؛هما: قوله (أَيَّامًا تُشِيبُ الحَزَوَّرَا) أي أيامًا تشيب الغلمان الصِّغار، وهي كنايةٌ عن الشِّدة والهول.

وقوله (أَصبَحْتُ الغداةَ مُؤَخَّرا) وهي كناية عن صعفه وهوانه ؛وهما كنايةٌ عن تعميره، والذي أصبح يتمنَّى الشاعر فيه لو أنه ما عاش في هذه الحياة، ويظهر أن تأخير مكانة المعمّرين الحسية في المجالس والمحافل، أو مكانتهم المعنوية في المشورة والرأي ؛قد أدّى إلى تهميشهم في الحياة، وهو ما كنَّوا به كثيرًا في أشعارهم عن تعميرهم ؛كقول المعمّر بحر بن الحارث الكلبي[٣]:

مَنْ عَاشَ خمسينَ حَوْلًا بعدها مائةً ∴ من السِّنينَ وأَضْحَى بعدُ ينتظرُ

وصَارَ في البيتِ مثل الحِلْسِ مُطَّرَحًا ∴ لا يُستَشَارُ ولا يُعطي ولا يَذَرُ

فإنه كنَّى بقوله (لا يُستَشَارُ ولا يُعْطي ولا يَذَرُ) عن تهميشه وضعفه وذلَّته ؛المفضية كلُّها إلى الكناية عن تعميره، فهو السبب في ذلك ؛وإلا فالمعمّرون جلُّهم كان ذا سيادةٍ وقيادةٍ ورأيٍ في قومه ؛كما يخبر المعمّر دريد بن الصِّمَّة – وهو كبيرُ قومه وسيِّدُهم يوم حنين – بقوله[٤]:

---

(١) المعمّرين ص ٧٧.

(٢) الحَزَوَّرُ الغلام إذا اشتدّ وقوي. اللسان – مادة: حزر – (١٨٥/٤).

(٣) المعمّرين ص ٥٥-٥٦.

(٤) ديوانه – طبعة دار المعارف – ص ١٠٤، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٢١.

يُمْضُونَ أمرَهم دوني وما فقدوا ∴ منِّي عزيمةَ أمرٍ ما خلا كَبَرِي

فقوله (يُمْضُونَ أمرَهم دوني) كنايةٌ عن تهميشه وتعميره، ودريد لم يجد مبرِّرًا لذلك التهميش إلا كبر السِّنِّ والتعمير ، وهذا معمّرٌ آخر هو صَرْمُ بن مالك الحضرمي يصيح مما صاح منه دريد ويُذَكِّرُ بما كان للمعمّر من أمجادٍ قبل تعميره وتهميشه ؛إذ يقول(١):

إنْ أُمْسِ كَلاًّ لا أُطَاعُ فربَّما ∴ سُقْتُ الكَتَائِبَ مُشْرِقًا أَو مُغْرِبَا

فقد كَنَّى عن تعميره من خلال كنايته عن ضعفه وذلَّته على قومه وتهميشه ؛بقوله (لا أُطَاعُ)، ثم ذكَّرَ بما له من شجاعةٍ وحسنِ قيادةٍ للجيوش، وخوضِهِ المعارك الكثيرة في جميع البقاع، ولكنَّها النظرةُ المشؤومةُ التي ينظر به الناسُ للمعمّرين ؛وما تستتبعه من تهميشٍ وتحقيرٍ لأمرهم، حتَّى غدا رُعيان القبيلة لا يُقَدِّرون أولئك المعمّرين ولا يَرونهم شيئًا ؛كما يخبر المعمّر أُمَيَّةُ بن الأسكر الكناني بقوله(٢):

أصبحتُ هُزْءاً لراعي الضَّأنِ أُعْجِبُهُ ∴ ماذا يَرِيبُكَ منِّي راعيَ الضَّأنِ

فقوله (أصبحتُ هُزْءَ لراعي الضَّأنِ) كنايةٌ عن ضعفه وذلَّته ؛بسبب تعميره وكِبَرِ سنِّه، ويبدو أن أُمَيَّة تشفَّى من خلال تحقيره لذلك الراعي بتكراره (راعي الضأن)، كما أن قوله (أُعْجِبُهُ) تشي بتطلُّب الراعي الاستهزاء بأُمَيَّة، وأنه يقصد العبث معه واستفزازه ؛من أجل اللهو والضحك.

هذا وإنَّ من الصفات المعنوية التي افتقدها المعمّرون من أنفسهم ؛صفة (الاستقلالية)، فالمعمّر لا يستطيع الاعتماد على نفسه، وإنما مدارُ حياته على

---

(١) المعمّرين ص ٨١.

(٢) ذيل الأمالي لأبي علي القالي – المطبوع مع الأمالي – ص ٦٥٧،وخبر تعمير أمية بن الأسكر في (المعمّرين) ص ٦٧.

معونة غيره له، وهو ما جعلهم في ألـــمٍ ومشقَّةٍ لا تنقطعان، وقد كَنُّوا بذلك في كثيرٍ من أشعارهم ؛كقول زهير بن جناب(١):

فـالمَـوْتُ خـيرٌ للفتى ∴ فَليَهْلِكَنْ وبـه بَـقِـيّه

من أن يُرى تَهـــدِيه وِلْـ ∴ ـدَانُ المقامةِ بالعَشِيَّه

وكقول النّمر بن تولب (٢):

لَعَمْرِي لقد أَنْكَرْتُ نفسي ورَابَنِي ∴ خلائقٌ منها لم تكن من شَمَائلي

مُطَاوَعَتِي مَنْ كُنْتُ لستُ أُطِيعُهُ ∴ وإنِّي أَرَى بَثِّي عن اللَّهوِ شَاغِلي

فإنهما كَنَّيَا في أبياتهم السابقة بقوليهمـــا (تَـــهدِيه ولْـــدَانُ الـــمقامةِ بالعَشِيَّه) و (مُطَاوَعَتِي مَنْ كُنْتُ لستُ أُطِيعُهُ) أما كناية زهيرٍ فهي كنايـــةٌ عـــن هوانه وضعف بصره، وهي مستلزمةٌ لاعتماده على غيـــره، وهـــي مســـتلزمةٌ لتعميره، وقلتُ (هوانه) ؛ لأن الذي يهديه أطفالٌ صغار ولـــيس الكبـــار، وقلـــتُ (ضعف بصره) ؛لقوله بالعَشِيَّه، وأما كناية النّمر بن تولـــب فهـــي كنايـــةٌ عـــن اعتماده على غيره ؛بسبب تعميره، هذا وقد مَهَّدَا لكنايتيهما الســـابقتين بـــأمورٍ ؛وَشَتْ ودلَّت على تذمُّرهما واستيائهما ؛فالأولى مَهَّدَ لها زهيرٌ بقوله (فالـــمَوْتُ خيرٌ للفتى فَليَهْلِكَنْ وبه بَقِيّه) فإنه يفضِّلُ الموتَ على أن يُساق ويُتَهادَى به بين أطفال، أو أن يهلك قبل أن يُعمّرَ ؛ما يضمن عدم اعتماده علـــى غيـــره ؛بهـــذه الصورة المؤسفة بالنسبة له، أما كناية النمّر فإنه مَهَّدَ لها بقوله (أَنْكَرْتُ نفسي ورَابَنِي خلائقٌ منها لم تكن من شَمَائلي) حيث إنه أنكر ذلك المصير الذي استجدَّ في حياته ولم يكن يتصوَّر بأنه يومًا سيخضع لإرادة ومعاونة غيره.

(١) المعمّرين ص ٢٦.

(٢) ديوانه – طبعة دار صادر– ص ١٠٩، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦٣.

ومن كنايات المعمّرين عن الاعتماد على غيرهم بسبب ما آلت إليه سِنُّهم من كِبَرٍ وتعميرٍ قول أُمَيَّة بن الأسكر الكناني[١]:

إمَّا تَرَيْنِي لا أَمْضِي إلى سفرٍ ∴ إلا معي واحدٌ منكم أو اثنانِ

كنَّى بعدم سفره لوحده ؛عن اعتماده على غيره اعتمادًا يدلُّ على تعميره وضعفه عن القيام بمهام السفر، وقوله (أو اثنانِ) يرشدك إلى حاجته الماسة إلى مساعدة الآخرين ؛فلربّما الرجل الواحد لا يكفي بمساندته، إلا أن يكونا اثنين أو أكثر، وماذا يخشى أُميَّة في سفره لوحده؟، هل يخشى ما يخشاه المعمّر الربيع بن ضَبُعٍ الفزاري ؛في قوله[٢]:

والذِّئبَ أَخْشَاهُ إن مَرَرْتُ به ∴ وَحْدِي وأَخشَى الرِّيَاحَ والمطرَا

من بعدِ ما قُوَّةٍ أُسَرُّ بها ∴ أَصبحتُ شيخًا أُعَالِجُ الكِبَرَا ؟

فالربيعُ بن ضَبُع يخاف الذِّئب والرِّياح والمطر إذا ما كان لوحده ؛وهو خوفٌ ليس في قلبه، بل في أعضائه وجسمه الذي داهمه الكِبَرُ والتعمير ؛وهو كنايةٌ عن ضعفه واعتماده على غيره، حتى في الذَّبِّ عن نفسه وحمايتها من أبسط ما كان يواجهه في أيام شبابه وقوَّتِه، وقد شَفَّعَ كنايته السابقة بقوله (أَصبحتُ شيخًا أُعَالِجُ الكِبَرَا) وفيه تلميحٌ منه بانهيارِ قوَّته وتَداعي أعضائه واحدًا تلو الآخر، مما جعله في شغلٍ وهمٍّ بمعالجةِ آلامه وأوجاعه.

وقد يتحوَّلُ اعتماد المعمّر على غيره إلى سجنٍ له ؛لا يخرج منه إلَّا إلى قبره، بسبب الوصاية المفروضة عليهم من قبل أهلهم وذويهم ؛وفي ذلك يقول مَصاد بن جناب اليربوعي[٣]:

---

(١) ذيل الأمالي لأبي علي القالي – المطبوع مع الأمالي – ص ٦٥٧،وخبر تعمير أمية بن الأسكر في (المعمّرين) ص ٦٧.
(٢) المعمّرين ص ٧.
(٣) المعمّرين ص ٢٣.

إذا ما أردتُ أَن أَقومَ لحاجةٍ ∴ يقولُ رقيبٌ حافظٌ: أين تذهب؟

فإنه كنَّى عن اعتماده على غيره ؛من خلال الرَّقابة الصارمة عليه، وهي عادةً لا تُجعل إلا لــمَنْ بلغَ من الكِبَرِ مبلغًا ؛بحيث يُخاف معه أن يقع في مكروهٍ، بسبب تعميره وضعف جسمه، ومهما كانت الأسباب ؛فإن المعمّرين لا ينظــرون إلى هذه الرقابة كما ننظر إليها ؛إذ يَعُدُّنَــها نوعًا من الوصايةِ المفروضة عليهم رغمًا عنهم، لذا ندَّدَ بها هنا الشاعرُ.

هذا ومن الصفات المعنوية التي فقدها المعمّرون ؛عدم القتال والدّفاع عن الحياض، وهي صفةٌ يموت العربي ولا تموت فيه، لاعتماد بقاء القبيلة عليهــا، ولكن ما يفعل المعمّر وقد أثقلت رواحلَهُ السِّنُّ ؛وأصبح يعيش تحت كنفِ مرحلة التعمير؟، ومن المعمّرين اللذين نَعَوا هذه الصفة ؛الجَرَنْفش بن عبدَة الطائي في قوله[١]:

إمَّا تَرَينِي لا أُعِينُ عَلَى النَّدَى ∴ ولا أَنْصُرُ المَوْلى كما كُنْتُ أَفْعَلُ

فإنه كَنَّى بقوله (ولا أَنْصُرُ الــمَوْلى كما كُنْتُ أَفْعَلُ) عن ضعفه وقعــوده عن نصرة المستغيث ؛بسبب ما ألــمَّ به من كِبَرٍ وتعميرٍ، قد جعل منه عاجزًا عن أداءِ ما كان هيِّنًا عليه، كما أن قوله (إمَّا تَرَينِي) يفيد أن الجَرَنْفش قــد توجَّــه بقوله السابق إلى امرأةٍ ؛ما يعكس حجم الألــم والمحنة، فأشدُّ ما يكــون علــى الرجل أن يبوحَ للمرأة بعدم قدرته على حماية المستغيث به ؛ومن باب أولى عدم حمايتها، مما يجعلها في حالةٍ من التَّعجّب ؛كما يقول المعمّر تميم ابن مقبل[٢]:

عَجِبَتْ لي الجُعْفِيَّةُ ابنةُ مالكٍ ∴ أن شَابَ أَصْدَاغي وأَقْصَرَ باطلي

(١) المعمّرين ص ٧٩.
(٢) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ١٦٦.

إذ كَنَّى بقوله (أَقْصَرَ باطلي) عن ضعفه وعجزه عن القتال ؛بسبب تعميره، وتعجُّبُ هذه المرأة هنا ؛قد أَطْفَأَهُ تميمٌ بقوله في قصيدةٍ أخرى(١):

وأَصْبَحْتُ شَيْخًا أَقْصَرَ اليومَ بَاطِلِي ∴ وأَدَّيْتُ رَيْعَانَ الصِّبَا المُتَعَوَّرَا(٢)

إذ إنه أوضح أن سبب ضعفه وعدم قدرته على الصّول والجول ؛هو الكِبَر والتعمير، وخير مَنْ يُصوِّر فَقْدَ هذه الصفة عدي بن حاتم الطائي عندما عُمّر ؛حيث قال(٣):

أَصْبَحْتُ لا أَنْفَعُ الصَّدِيقَ ولا ∴ أَمْلِكُ ضَرًّا للشَّانئِ الشَّرِسِ

فإنه كَنَّى بعدم نفعه الصَّديق وعدم ضرّه العدو ؛عن ضعفه، وهو كنايةٌ عن تعميره، فعديٌّ كأنه يرى عدم جدوى بقائه بين أفرادِ قبيلةٍ ؛مبدأها يقوم على نفع الصديق وصدِّ العدو، ولا احترام لمَنْ لا يخضع لطرفي هذا المبدأ، أو لثانيهما – وهو صدُّ العدو والقيام له – على أقلِّ تقدير ؛وهو ما جعل المعمّر الحارث بن مضاض الجرهمي يقول متحسِّرًا(٤):

تَمَادَتْ بي الأيَّامُ حَتَّى تَرَكَتْنِي ∴ كمثلِ حُسَامٍ أَفْرَدَتْهُ القَلائدُ
ونادى بي الأَدنى وأُشْمِتَ بي العِدَى ∴ ويَأْمَنُ كيدي الكَاشِحُونَ الأباعدُ

حيث إنه كَنَّى بقوله (ويَأْمَنُ كيدي الكَاشِحُونَ الأباعدُ) عن ضعفه وتعميره، وأنه أصبح عالةً على القبيلة والأقارب.

(١) ديوانه – طبعة دار صادر – ص ١٠٩.
(٢) المُتَعَوَّر:المُستعار. اللسان – مادة: عور – (٦١٢/٤).
(٣) شعر طيئ (٦٣٩/٢)، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٣٦.
(٤) التيجان ص ١٩٨، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٥-٦.

الفصل الثالث

كناياتهم عن المآل والمصير بعد تعميرهم

التَّطَلُّعُ للمستقبل والعيش فيه ؛أمرٌ يعرض لكلِّ إنسانٍ، بل ومعظم النـــاس يتمنّى ويرغب في أن يتقدّم به العمر ؛ويعيش أُخرياته، ولكن مـــا الحـــال وقـــد تحقَّقت هذه الأماني والرغبات، هل وجد ما كان يتشوَّف له مـــن حيـــاةٍ رغيـــدةٍ هانئةٍ، أم أن الأمر كما قال النّمر بن تولب بعد تعميره(١):

يُحِبُّ الفَتَى طُوْلَ السَّلامَةِ والغِنَى ∴ فكيفَ يَرَى طُوْلَ السَّلامةِ يَفْعَلُ؟

فالمعمّرون لم يجدوا تلك الحياة السعيدة، بل وجدوا حيـــاةً يتقلَّـــب بهـــا الضَّعف والخزن والألـــم والذِّلَّة والهوان على الناس، وأصبحت حيـــاتهم كلمـــا طالت ؛صغر حيِّز عيشهم، كلما طال بهم الزَّمان ؛ضاق بهم المكان، فبعدَ أن كان الأرض بما رحبت مسرحًا لهم ؛أصبح البيت ومحيطه لا يكادُ يتَّسع لهم، فها هو المعمّر حارثة بن عبيد الكلبي يخبرنا بذلك ؛إذ يقول(٢):

أَلا لَيْتَنِي أَنْضَيتُ عُمـــرِي ∴ وهل يُجْدِي عَلَيَّ اليومَ لَيْتِي

حَنَتْنِي حانياتُ الدَّهْرِ حتَّى ∴ بَقيتُ رَذِيَّـةً(٣) في قَـــعْـــرِ بيتي

فقد كَنَّى بقوله (بَقيتُ رَذِيَّةً في قَعْرِ بيتي) عن لزومه البيت، وهو كنايـــة عن ضعفه ومرضه، وهو كنايةٌ عن تعميره ؛بدلالة السياق الـــمتمثِّل في قولـــه (أَنْضَيتُ عُمرِي) أي قضيت عمري ؛فهو يتمنّى أنه قضى عمره ومات قبـــل أن يُعمّر، وكذلك قول المعمّر ثعلبةُ بن كعبٍ الأوسي(٤):

---

(١) المعمّرين ص ٦٣.

(٢) المعمّرين ص ٧٥.

(٣) من الرَّذِيُّ ؛وهو: الذي أَثقَلَه المَرَض. اللسان – مادة: رذى – (٣٢٠/١٤).

(٤) المعمّرين ص ٧٢.

فَأَصْبَحْتُ الغَدَاةَ رَهِيْنَ بيتي ∴ وأَخْلَفَنِي من الموتِ الرَّجَاءُ

فقوله (رَهِيْنَ بيتي) كنايةٌ عن لزومه البيت ؛وهو مستلزمٌ ومستتبعٌ لتعميره، كما أن قوله (وأَخْلَفَنِي من الموتِ الرَّجَاءُ) يقطر ألماً وحسرةً ؛لما يشعر من رغبةٍ عارمةٍ في الموت والهلاك، فأي حياةٍ تلك التي عاشها المعمّرون، والتي كان البؤس عنوانًا لها ؛وفي ذلك يقول عبَّاد بن شدَّاد اليربوعي(١):

يا بُؤْسَ للشَّيْخِ عَبَّادِ بنِ شَدَّادِ ∴ أَضْحَى رَهِينَةَ بيتٍ بين أَعْوَادِ

فهو ينعى لنا حياةَ البؤس التي يحياها المعمّرون، وكنَّى بقوله (أَضْحَى رَهِينَةَ بيتٍ بين أَعْوَادِ) عن محبسه ولزومه البيت، وأشير إلى جمال قوله (بين أَعْوَادِ) الذي هو كنايةٌ عن البيتِ ؛بيتِ الوَبَرِ والشَّعَرِ خاصة إذ إنه هو المقصود، فهو الذي تكون عمدانه من أعواد، ومِمَّنْ كنَّى بلزوم البيت عن التعمير ؛المعمّر مصاد بن جناب اليربوعي في قوله(٢):

ما رَغْبَتي في آخرِ العَيْشِ بعدَ ما ∴ أَكُوْنُ رَقِيْبَ البيتِ لا أَتَغَيَّبُ

فقوله (أَكُوْنُ رَقِيْبَ البيتِ لا أَتَغَيَّبُ) كنايةٌ عن ذلك اللُّزوم الذي عانى منها المعمّرون، وهو كنايةٌ عن التعمير ؛بدلالة قوله (ما رَغْبَتي في آخرِ العَيْشِ)، فالمعمّرُ يكون تحت رقابة أهل البيت فلا يملك أمر نفسه، ولا الحرية في التنقّل، وأشيرُ هنا إلى أن معنى قوله (رَقِيْب) أي مَنْ وقعت عليه المراقبة، فهو فعيلٌ بمعنى مفعول(٣).

---

(١) المعمّرين ص ٥٨.

(٢) المعمّرين ص ٢٣.

(٣) ينظر: اتفاق المباني وافتراق المعاني ص ٢٢٨.

ومِـــمَّنْ كنَّى بذلك أيضًا المعمّر ربيعة بن عبد الله البَجَلي[١]:

أَرَانِي قد نَخَلْتُ وصِرْتُ حِلْسًا[٢] ∴ لقَعْرِ البيتِ مُفْتَقِرَ الشَّبَابِ

فإنه – كما يقول – أصبح حلسًا وبساطًا وفرشًا للبيت ؛وهو كنايةٌ عـــن مدى لزومه للبيت، وعدم مفارقته، وهو كنايةٌ عن التعمير ؛فهو يقـــول مفتقـــرٌ للشباب وقوّته، بل وحتَّى عزه وشموخه ؛بعد أن صار عالةً وكلًّا على أهله، كما يقول سنان بن وهب التيمي[٣]:

لقد عُمِّرتُ حتَّى صِرْتُ كلًّا ∴ مُقِيْمًا لا أَحُلُّ ولا أسيرُ

وكيف بِمَنْ أَتَتْ مائتان عامٍ ∴ عليه أَن يكونَ له نكيرُ

فهو غدا ملازمًا للبيت لا يرحل ولا يسير ؛وهو كنايةٌ عن التعمير، ويبدو أنه كان يُعاني من الهوان والذّلِّ ؛لأن تساؤله (وكيف بِـــمَنْ ...) يشـــعر بـــذلك، فكأنه لا يحقُّ له الاعتراض على شيءٍ ؛لكِبَرِ سِنِّه وهوانِه على أهل بيته.

ومن الملفت للنّظر في أشعار المعمّرين ؛حديثهم غير المنقطع عن طـــول بقائهم، والكناية به عن تعميرهم ؛كقول المعمّر الجُشْعم بن عوف[٤]:

حَتَّى متى الجُشْعم في الأحياء ∴ ليس بذي أَيْدٍ[٥] ولا غناءِ

(١) ديوان الشعراء المعمّرين ص ٣٥٤، وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٧٦.
(٢) حِلْسُ البيت: ما يُبْسَطُ تحت حُرِّ المتاع من مِسْحٍ ونحوه ؛والجمع: أَحْلاسٌ. اللسان – مادة: حلس – (.../...).
(٣) المعمّرين ص ٨٠.
(٤) المعمّرين ص ٣٢.
(٥) الأَيْدُ والآدُ جميعاً: القوّة. اللسان – مادة: أيد – (٧٦/٣).

فقوله (حَتَّى متى الجُشْعم في الأحياء) كنايةٌ عن طول بقائه وتعميره، وقوله (ليس بذي أَيْدٍ ولا غناءِ) كنايةٌ عن ضعفه وذلّته ؛بسبب تعميره، ما يعكس معاناته وضعف ذات اليد منه.

ومِمَّنْ كنَّى عن التعمير بطول بقائه ؛عميرة بن هاجر الخزاعي بقوله[١]:

وقد عِشْتُ دهرًا لا تُجنُّ(٢) عشيرتي ∴ لها ميِّتًا حتَّى أَخُطَّ له قَبْرَا

فقوله هذا فيه دلالةٌ عن طول بقائه ؛وهو مستلزمٌ ومستتبعٌ لتعميره، فقد عبَّر عن طول بقائه ؛بمباشرته الطويلة لأعمال دفن الموتى في قبيلته، وقضى في ذلك دهرًا طويلًا، حتَّى ملَّ الناس رؤيته حيًّا ؛كما عبَّر معمّرٌ آخرُ هو القُدَار العَنَزي بقوله[٣]:

رُبَّ حَيٍّ رأَيتُهم ورَأَوْني ∴ ثم قالوا متى يموتُ قُدَارُ؟

فإن الناس ما سألوا هذا السؤال إلا لِمَا رأوه من طول حياة المعمّر، ودبِّه بين الأحياء، ولعل تشوُّف الناس وتطلُّعهم لموت المعمّر ؛جعل من المعمّر جعفر بن قُرْطٍ الهِزَّاني يَعرض حياته الطويلة للبيع ؛حيث يقول[٤]:

أُحْسَبُ في الحَيِّ من الأمواتِ ∴ هل مُشْتَرٍ أَبِيْعُهُ حياتي؟

---

(١) المعمّرين ص ٧٣.

(٢) جَنَّ المَيّتَ جَنّاً وأَجَنَّه: ستَره ... والجَنَنُ – بالفتح – هو القبرُ ؛لستْرِه الميت، والجَنَنُ أَيضاً الكفَنُ. اللسان – مادة: جنن – (٩٢/١٣).

(٣) المعمّرين ص ٧٦.

(٤) المعمّرين ص ٤٣ وفيه ورد عجز البيت فقط مُذيَّلًا به مجموعة من الأبيات، أما البيت بتمامه ففي التيجان ص ١٥٦.

وقد يكون وراء عرض جعفر بن قُرْطٍ حياته للبيع ؛أمرٌ آخر، يفسِّره قول المعمّر مسافع بن عبد العِزَّى الضِّمري[١]:

يَرَانَا أَهلُنا لا نحن مرضى ∴ فَنُكْوَى أو نُلَدُّ[٢] ولا صِحَاح

فإن أهل المعمّر وعشيرته يرونه لا مريضًا فيُطَبَّب، ولا صحيحًا فينتفع منه، بل هو عالةٌ عليهم وثقلٌ يتمنَّون زواله ؛بهلاك ذلك المعمّر، وما المعمّرون ببعيدٍ عن هذه الأمنية، فهم يتمنَّون نهاية هذه الحياة ؛التي سببت لهم الذّلة والهوان، ولا أن يعيشون حياةً كما وصفها عميرة بن هاجر الخزاعي بقوله[٣]:

وأَصبحتُ مثل الفَرْخِ لا أَنا مَيِّتٌ ∴ فأُسْلَى ولا حَيٌّ فأُصْدِرَ لي أَمرَا

وتمنِّي الموتَ شائعٌ بين المعمّرين ؛من ذلك قول كعب بن رَدَاة النَّخَعي[٤]:

فَيَا لَيْتَنِي قد سِخْتُ في الأرضِ قَامَةً ∴ ولَيْتَ طَعَامِي كانَ فيه حِمَامِي

فإنه يتمنَّى لو أنه يغور في الأرض وتبتلعه، أو أن يتناول موتَه مع طعامه ؛فتنتهي حياته الشقيَّة، وإن من المعمّرين من كان ينظر إلى الموتِ بتعقُّلٍ ؛فهو آتٍ وحالٌّ بالمعمّر وغيره دونما أُمنيَة أو استعجال ؛فهذا المعمّر عَدِي بن وَدَاع الأَزدي يقول[٥]:

أَعْلَمُ أَنَّ كلَّ فتىً مَرَّةً ∴ للقتلِ أَو بيتٍ من الجَنْدَلِ

---

(١) المعمّرين ص ٢٤.

(٢) اللَّدُودُ. ما يُصَبُّ بالمُسْعُط من السقْي والدَّواء في أَحد شِقّي الفم. اللسان – مادة: لدد – (٣٩٠/٣).

(٣) المعمّرين ص ٧٣.

(٤) المعمّرين ص ٧٤.

(٥) المعمّرين ص ٣٨ وفيه (مرَّة للتُّراب) بدل (مرَّة للقتل) ولا يستقيم المعنى به ؛فالرواية المثبتة هي في منتهى الطلب (٣٠٨/٨).

والمعمّر زهير بن مَرْخَة العَدواني يقسم على ذلك ؛إذ يقول(١):

فَأُقسِمُ لا بُدَّ من مَوْتَةٍ ∴ وتُمْسِي عظامي رُفَاتًا رَمَادا

ومن الأمور التي وقف عندها المعمّرون بعد أن آلت إلى ما آلت إليه حياتهم من عُزلةٍ وانسلاخٍ عن المجتمع ؛أمرُ تفكُّرهم فيما مضى عليهم من دهورٍ وقرونٍ من الولادةِ إلى التعمير، فهذا الرَّبيع بن ضَبُعٍ الفزاري يقول بعد أن مخضَ فكرُه مسلسلَ حياته(٢):

رَأَيتُ قُرُنًا بعدَ قَرْنٍ تَقَدَّمَتْ ∴ فلم يَبْقَ إلا ذكرُها حينَ وَلَّتْ

فإنه كَنَّى عن تعميره وطول حياته ؛بتعاقب القرون عليه، فهو يعيش على ذِكْرٍ من تلك القرون، وما تحمل من عنفوان الصِّبا، وقوّة الشباب وعزِّه وأمجاده، ومثلُه لبيد بن ربيعة في قوله(٣):

أُخَبِّرُ أخبارَ القُرُونِ الَّتي مَضَتْ ∴ أَدِبُّ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ

وابن حُمَمَة الدَّوْسي في قوله(٤):

أُخَبِّرُ أَخْبَارَ القُرُونِ الَّتي مَضَتْ ∴ ولا بُدَّ يومًا أَن يُطَارَ بِمَصْرَعِي

فإنهما كَنَّيَا عن تعميرهما وطول حياتهم ؛بإخبارهما بأخبار القرون السالفة، فأضحيا يكتنزان العديد من الأحداث والمرويات عن تلك القرون الخوالي، وكلٌّ واحدٍ منهما شَفَّعَ كنايته ؛بما جادت به قريحته، أمَّا لبيد فإنه ذيَّلَ كنايته بذلك التشبيه ؛وهو قوله (كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ)، مدلِّلًا بذلك على أثرِ تعاقبِ تلك القرون على جسده، والذي انحنى وأصبح مَنْ يراهُ واقفًا ؛كمَنْ يرى

(١) التيجان ص ٢٥٦، وخبر تعمير زهير بن مَرْخة في (المعمّرين) ص ٦٤.
(٢) التيجان ص ١٣٠ وخبر تعميره في (المعمّرين) ص ٦.
(٣) المعمّرين ص ٦١.
(٤) المعمّرين ص ٢٢.

مصلِّيًا راكعًا، وأمَّا ابن حُمَمَة فإنه ختمَ كنايته بختمِ الخلاص، وبنهايةِ كلِّ حيٍّ ؛وهو قوله (ولا بُدَّ يومًا أَن يُطَارَ بمَصْرَعِي) فهو يعلم بأن مصيره الموت لا غير ؛لتيقُّنه بأن الأيامَ تُفني ولا تَفنى، كما يقول المعمّر المسحاج بن خالد الضَّبِّي(١):

وأَفْنَاني ومـا يَفْنَى نَهَارٌ ∴ وليلٌ كُلَّمَا يَمْضِي يَعُوْدُ

وشَهْرٌ مُسْتَهَلٌّ بعدَ شَهْرٍ ∴ وحَوْلٌ بعدَهُ حَوْلٌ جديدُ

فتعاقبُ الأيام عليه ؛كنايةٌ عن طول حياته وتعميره، وأرى أن تفصيله الدقيق للزمن في بيتيه السابقين ؛بذكره النَّهار واللَّيل وهما يمثِّلان اليوم كاملًا، والشهر، ثم الحول ؛فيه ما يعكس تململه وتبرُّمه من طول حياته، ومن تعميره الذي أدخلَهُ تحت ظلِّ حياةٍ لم يألفها أو يرتضي بها ؛لما فيها من الضَّعف والانكسار.

ولعلَّ المعمّرين حينما جنحوا إلى أسلوب الكناية عن تعميرهم ؛وجدوا في الأحداث والأعلام التاريخية الموغلةِ في القِدَم ميدانًا رحبًا يستقبل ويحتمل تلك الكنايات، لذا ربطوا حياتهم بتلك الأحداث ؛تدليلًا منهم على طول حياتهم، مع ما تُظِلُّ به تلك الأحداث من ظلٍّ على الشِّعر والشاعر ؛من ذلك ما قاله الرَّبيع بن ضَبُعٍ الفزاري(٢):

هَـا أَنَذَا آمُـلُ الخُـلودَ وقـد ∴ أَدْرَكَ عَقْـلِي ومَـوْلِدِي حُجُرَا

أَبا امرئِ القيسِ هل سَمِعْتَ به ∴ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ ذا عُمُرَا

دلَّلَ على تعميره وطول حياته ؛من خلال توضيحه بأن مولده كان في حياة والد امرئ القيس الشاعر الجاهلي المعروف، وبيته هذا قاله في الإسلام ؛

(١) المعمّرين ص ٧٦.

(٢) المعمّرين ص ٧.

ما يعكس طول عمر الرَّبيع، ومن المعمّرين من أخذته المبالغةُ إلى تجاوز امرئ القيس ووالده ؛إلى ذي القرنين المذكور في القرآن الكريم ، وهو عَوَّام بن المنذر بن لأم ؛حيث يقول(١):

ووالله ما أَدْرِي أَ أَدْرَكْتُ أُمَّةً ∴ عَلَى عَهْدِ ذي القَرْنَيْنِ أم كُنْتُ أَقْدَمَا

فهو يتساءل هل مولده كان في زمن ذي القرنين أم كان قبله، ولا شكَّ أن هذه مبالغةٌ، لكنَّها تعكس طول حياة ذلك المعمّر.

ومن قبيل ذلك ما قاله المعمّر شُرَيْح بن هانئ المَذْحِجي مُرْتجِزًا(٢):

قد عِشْتُ بينَ المشركينَ أَعْصُرَا
ثُمَّتْ أَدرَكْتُ النَّبيَّ المُنْذِرَا
وبعدَهُ صِدِّيقه وعُمَرَا
ويومَ مِهْرَانَ ويومَ تُسْتَرَا
والجمعَ فى صِفِّيْنِهِمِ والنَّهْرَا
هيهاتَ ما أطوَل هذا العُمرَا

فهذا المعمّر قد خَنَقَ العصورَ خنقًا، فتسلسلُ الأحداث التي عاصرها ؛يدلُّ على طول حياته وتعميره، مع ما في تلك الأحداث من قيم تاريخية، ففيها بداية تاريخ العرب من جاهليتهم إلى آخر ما ذكر الشاعر من أحداث، فحقًّا إنه عمرٌ طويلٌ حافلٌ بالأحداث.

وبعدُ فإن أشعارَ المعمّرين تفوحُ بعبق تلك الأحداث والأيام التي مرّت على الناس عبر التاريخ، والتي لم أود الوقوف عندها كثيرًا ؛لئلا ينصرف الكلام

(١) المعمّرين ص ٧١.
(٢) المعمّرين ص ٣٨-٣٩.

في هذا المبحث من الصفة الأدبية إلى الصفة التاريخية، فذكر تلك الأحداث ؛يستلزم مني تعريفها وإيضاحها للقارئ، ما أرى فيه صرفًا عن المقصود، وتضخيمًا لهذه الوريقات، التي ما وضعتها إلا ليعرف المطَّلعُ عليها، مدى ملاءمة التعبير الكنائي للمعاني الشعرية، وأنه يحتمل ما يحتمله غيره من الفنون البلاغية، فالكنايةُ غورها بعيد، ووعاؤها واسعٌ لكلِّ معاني الشعر، بل إن معاني الشعر تنتهي ؛ويبقى في إناء الكناية متَّسعٌ.

الخاتمة

كشف لنا البحث بعض الأمور عن مرحلةٍ تُعَدُّ من آخر المراحل التي يعيشها الإنسان؛ ألا وهي مرحلة التعمير، فكشفَ لنا أن المرء عندما يصل هذه المرحلة يكون ؛ أحد رجلين:

رجلٍ أثَّر الكِبَرُ والتعميرُ في صفاته الجسدية وصفاته المعنوية، أو رجلٍ كان التأثير في صفاته المعنوية فقط ؛حيث إنه يصل هذه المرحلة من عمره وهو في كامل قواه الجسدية، ولكنه لا يسلم حينئذٍ من هموم التعمير وما يطبع به حياته، أو ما يُلزمه به من العيش تحت ظروفٍ معينةٍ ؛كالرقابة والوصاية والحجر أحيانًا.

فرأينا في الفصل الأول كيف نعى المعمّرون ما فقدوه من صفاتٍ جسديةٍ ؛من خلال قالب كنائي، وكأنهم على استحياءٍ من البوحِ بما فقدته أجسادهم الموهنة بوهن الكِبَرِ والتعمير ؛فجنحوا إلى الكناية عن ذلك، ولهم الحقّ في ذلك ؛ فكثيرٌ من أولئك المعمّرين يملك سجلًا حافلًا من الإنجازات، فمنهم من كان سيّدَ قومه، ومنهم من كان فارسَهم، ومنهم من كان شاعرهم أو خطيبهم، أو سفيرهم وممثِّلهم في المحافل ؛فنعوا بكلِّ ألمٍ وحرقةٍ: انحناءَ القامة، وفقدَ البصرِ وضعفَه، وسقوطَ الأسنان، والعجزَ عن حمل السلاح وردِّ الدَابة، وضعفَ العظام وخوارَ القوّة، والرَّعشةَ، وملازمتَهم للعصا، والمرضَ، وقلّةَ النومِ والطعام، واعتزالَهم النساء ؛كلُّ ذلك نعوه بأسلوبٍ كنائيٍّ رشيق.

ثم جاءنا الفصل الثاني وأرشدنا إلى أن التعمير لا يتوقَّف أثره على البدن فقط ؛بل إنه يشمل ما وراء البدن، يشمل تلك الصفات المعنوية، التي يطبق المعمّرون ويتَّفقون على أنهم لو فقدوا جميع صفاتهم الجسدية ؛في سبيل إبقاء واحدةٍ من صفاتهم المعنوية، لمَا تردَّدوا في قبول ذلك، ولكن هيهات هيهات

تخترق أجسادُ المعمّرين سننَ وقوانينَ البشريّة ؛التي خلق الله تعالى تلك الأجساد عليها، رأينا المعمّرين في هذا الفصل وهم يعيشون على هامشِ الحياة ؛التي يسير دولابها بقوةٍ وسرعةٍ ؛عجز المعمّرون على مسايرتها، فتنحَّوا جانبًا ؛إلى حيث لا يُسمع لهم صوتًا ولا ضجيجًا، إذ إنهم أصبحوا عالةً على أسرهم، معتمدين عليهم في كثيرٍ من الشؤون، ولا يملكون نفعًا لصديق، ولا ضرًّا لعدو، بل الواحد منهم إذا ضرب في الأرض لا يحسن العودة ؛لفقدهم مهارة الاهتداء في المفاوز والقفار، فلذلك لا يستطيع المعمّر السفر وحده، وإن سافر مع ذويه فلا يكون إلا في مؤخَّر الرَّكب ؛بعد أن كان هو المقدَّم، كما أنهم فقدوا في هذه المرحلة الأصدقاء وفارقوهم فراق لا لقاء بعده في هذه الحياة ؛إذ إن لِداتهم وأقرانهم ماتوا جميعًا، وأكثر ما كان يؤلم المعمّرين ؛هو تأذي أقاربهم منهم ومن خدمتهم والصبر عليها، وقد كنَّى المعمّرون بكلِّ تلك الأدواء دونما تصريحٍ منهم ؛وكأنهم يُراعون مشاعر قرابتهم وعدم إيذائهم، وعدم مجابهتم بتلك الحقيقة المؤسفة.

ثم يأت الفصل الثالث وهو بمثابة الوقوف على الأطلال لأولئك المعمّرين، رأيناهم متفكّرين في عواقبهم ومآلهم، رأينا تَـمَلْمُلَّهم من الحياة وطول البقاء ؛حتى أصبح الواحدُ منهم يتمنَّى الموت والهلاك على أن يعيش حياة التعمير تلك، رأيناهم وهم يصفون مثواهم الأخير ومحبسهم (البيت) ؛فكأنهم يعيشون في إقامةٍ جبريَّةٍ، كما فُرضت عليهم رقابة ووصاية، وكان أكثر ما يؤرِّق المعمّرين في خضم هذه الرّقابة ؛أن تعاملهم أكثر ما يكون مع فئاتٍ لا تقدِّرهم ولا تُراعي حُرْمَةَ سِنِّهم، ما جعلهم عُرضةً للاستهزاء والعبث بهم وبمشاعرهم، حتى أن بعض المعمّرين كان يتعرض للضرب من بعض نسائه، والاستهزاء به من قِبل رُعاة مواشيه ؛ كما مرَّ سالفًا.

وأخيرًا فإن هذه الدراسة الموجزة ؛كشفت لنا على أن الكناية باعتبارها أسلوبًا كلاميًّا من أساليب العرب، وباعتبارها فنًّا بيانيًّا من فنون البلاغة ؛لا تقلّ أهميةً عن بقية فنون البلاغة، وأنها لا ينقصها استيعاب المعاني الشعرية، فهي أسلوبٌ رشيقٌ مرن يتَّسق مع جميع الأفكار التي تخطر في ذهن الشاعر، وتتميز بما تضفيه على الكلام من إخفاءٍ للغرض تسمح به قوانين العربية، ما يستدعي تطلُّعَ وتشوُّفَ المتلقي ؛معرفة المعنى الكنائي المتواري خلفَ المعنى المباشر، ما يَخلقُ له نوعًا من الرياضة العقلية ذات الخلفية الأدبية، إذ إن بعض الكنايات يستلزم إجراؤها ووضعها في مكانها الصحيح ؛لياقةً أدبيةً عاليةً، ودربةً ودرايةً بالشعر وطرائق نظمه وإنشائه.

كما أن هذه الدراسة بيَّنتْ لنا أن معظم المعمّرين لم يعيشوا حياةً هانئةً ؛فلا زال صوت المعاناة يُسمع من أشعارهم، ويُبصر في الصور الشعرية التي رسمتها أخيلتهم على خلفيةِ واقعهم ؛وما آلت إليه حياتهم الطويلة.

المصادر والمراجع

١- أبو الطّمحان القيني حياته وما تبقى من شعره، الدليمي، محمد نايف، مجلة المورد، العراق، العدد ١٧، المجلد الثالث، خريف ١٩٨٨م، ص١٥٣-١٧٣.

٢- اتفاق المباني وافتراق المعاني، الدقيقي، سليمان بن بنين ت٦١٤هـ، تحقيق: الدكتور يحيى عبدالرؤوف جبر، ط١، عَمَّان، دار عمار، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٣- الإصابة في تمييز الصحابة، العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط١، بيروت، دار الجيل، ١٤١٢ه

٤- الأعلام، الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي المتوفى ١٣٩٦هـ، الطبعة١٥، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

٥- الأغاني، الأصفهاني، أبو الفرج، تحقيق: سمير جابر، ط٢، بيروت، دار الفكر، (د.ت).

٦- الأمالي ومعه ذيل الأمالي والنوادر، القالي، الإمام اللغوي الأديب أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون، تحقيق: الشيخ صلاح بن فتحي هلل و سيد بن عباس الجليمي، ط١، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٧- البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر ت٢٥٥هـ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٤، القاهرة، مكتبة الخانجي، د.ت.

٨- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق: الدكتور عمر عبد السلام تدمري، ط١، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٩- التّذكرة الحمدونية، ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي، تحقيق: إحسان عبّاس و بكر عبّاس، ط١، بيوت، دار صادر، ١٩٩٦م.
١٠- التعازي والمراثي، المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد ت٢٨٦هـ، تحقيق: خليل المنصور، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
١١- التيجان في ملوك حمير، وهب بن منبه، تحقيق ونشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، ط١، صنعاء، ١٣٤٧هـ.
١٢- جمهرة أشعار العرب، القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب، تحقيق: الأستاذ خليل شرف الدين، (د.ط)، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٩م.
١٣- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي، عبد القادر بن عمر ت١٠٩٣هـ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط٤، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
١٤- ديوان ابن مقبل، تحقيق: الدكتور عِزَّة حسن، (د.ط)، بيروت، دار الشرق العربي، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
١٥- ديوان الشعراء المعمّرين: أخبارهم وأشعارهم في الجاهلية إلى نهاية العصر الأموي، الدكتورة شمس الإسلام أحمد حالو، ط١، أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث - دار الكتب الوطنية، ٢٠١٠م.
١٦- ديوان النّمر بن تولب العكلي، تحقيق: الدكتور محمد نبيل طريفي، ط١، بيروت، دار صادر، ٢٠٠٠م.
١٧- ديوان أوس بن حجر، تحقيق: الدكتور محمد يوسف نجم، ط٢، بيروت، دار صادر، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
١٨- ديوان دريد بن الصِّمَّة، تحقيق: الدكتور عمر عبد الرسول، القاهرة، دار المعارف، (د.ت).

١٩-ديوان ذي الإصبع العَدْوَاني ؛حُرْثَان بن مُحرِّث، تحقيق: عبد الوهاب محمد علي العَدْوَاني و محمد نائف الدُّليمي، الموصل، مطبعة الجمهور، ١٩٧٣م - ١٣٩٣هـ.

٢٠- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، (د.ت).

٢١- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى، ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى ت٢٩١هـ، ط٣، مصر، دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٢٢- شعر طيئ وأخبارها في الجاهلية والإسلام، الدكتورة وفاء فهمي السنديوني، ط١، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٣- طبقات الشعراء، محمد بن سلام الجمحي، مع تمهيد للناشر الألماني: جوزف هل، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٤- العقد الفريد، ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي المتوفى: ٣٢٨هـ، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٤هـ.

٢٥- عيون الأخبار، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدِّينَوَري ت٢٧٦هـ، تحقيق: الدكتور محمد الإسكندراني، ط٤، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٢٦- الفاضل، المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد ت٢٨٦هـ ، تحقيق: عبد العزيز الميمني، (د.ط)، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١م.

٢٧- الفردوس، عبد الرحمن البرقوقي، (د.ط)، مطبعة الاستقامة، (د.ت).

٢٨- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط١، بيروت، دار صادر، (د.ت).

٢٩- المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح، تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة، ط٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.
٣٠- المعاني الكبير في أبيات المعاني، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدِّينَوَري المتوفى ٢٧٦هـ، تحقيق: الدكتور محمد نبيل طريفي، ط١، بيروت، دار صادر، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٣١- المعمّرين من العرب وطُرَفٍ من أخبارهم وما قالوه في منتهى أعمارهم، السجستاني، الإمام أبي حاتمٍ سهل بن محمد بن عثمان البصري المتوفى سنة ٢٣٥هـ، تحقيق: محمد أمين الخانجي، ط١، مصر، مطبعة السعادة، ١٣٢٣هـ - ١٩٠٥م.
٣٢- مفيد العلوم ومبيد الهموم، القزويني، زكريا بن محمد بن محمود ت٨٦٢هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٣٣- منتهى الطّلب من أشعار العرب، ابن ميمون، محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون ت ٥٩٧هـ، تحقيق: الدكتور محمد نبيل طريفي،ط١، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩م.

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	رقم الصفحة
١	المقدّمة	١٤٣٩
٢	الفصل الأول: كناياتهم عن التعمير بما فقدوه من سمات جسدية.	١٤٤٤
٣	الفصل الثاني: كناياتهم عن التعمير بما فقدوه من سمات معنوية.	١٤٦٧
٤	الفصل الثالث: كناياتهم عن المآل والمصير بعد تعميرهم.	١٤٨٢
٥	الخاتمة	١٤٩١
٦	المصادر والمراجع:	١٤٩٤
٧	فهرس الموضوعات	١٤٩٨